الباب الثالث

العالمية في الدعوة الإسلامية سارية في فرائض الإسلام وتعاليمه

١ – الإيمان بالله واليوم الآخر

٢ – الصلاة

٣ – الزكاة

٤ – الصوم

٥ – الحج

٦ – الأخلاق والآداب

تعريف بالباب الثالث والرابع

من المعلوم أن الإسلام حقيقة كاملة تشمل كل ما يتصل بشئون العقيدة والعبادات وما يتعلق بأمر السلوك والمعاملات ، حقيقة تشمل شئون الحياة وتحيط بها جميعًا .

وفي حديثنا عن العقيدة سنقتصر على الإيمان بالله واليوم الآخر ، إذ هو الأصل في الإيمان بالملائكة والكتب والرسل ناظرين إلى هذه العقيدة من حيث آثارها في شئون الحياة لنرى معها أنها عقيدة تهيء الإنسان لهذه الحياة أولا ليتخذ من صالح عمله فيها زادا يصل به إلى نعيم الآخرة .

وفي العبادات بعد حديثنا عن الإيمان بالله واليوم الآخر سنقصر الحديث على الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وسيرى القارئ أننا لم ننظر إليها على أنها وحدها عبادات ، بل إن كل عمل من الأعمال يرتبط بالإيمان ويصدر عن اليقين عبادة . لا تفرقة فيه بين شئون الدين وشئون الدنيا ، الكل في الإسلام دين ما دام مرتبطًا بالإيمان واليقين .

ثم نتحدث عن الآداب والأخلاق لأنها ذات صلة وثيقة بالعقائد والعبادات ، وهذا ما ضمه الباب الثالث – عقائد – عبادات – سلوك وأخلاق .

أما شئون المعاملات من سياسية واقتصادية واجتماعية ، سواء منها ما يتعلق بالفرد في أحواله الخاصة وما يتصل بالمجتمع في شئونه المختلفة وما يرتبط بعلاقة الدول في المحيط الإنساني العام فقد أفردنا له الباب الرابع .

ولم نعنون له باسم المعاملات ، وإنما سقناه في قضايا عامة تواجه البشرية وتقوم من أجلها المذاهب المختلفة .

وسنرى نظرة الإسلام لهذه القضايا وما تواجهه الإنسانية من مشاكل .

والحق أن الإسلام حقيقة متكاملة تقوم في الوجود الإنساني قيام الشمس في عالم الطبيعة تتفاعل مع الكائنات في يسر وتنسكب على المخلوقات في سخاء ، فترى من آثارها في الكون ما ترى : في النبات ، في الحيوان ، في الإنسان . الكل يتقبل منها على حسب طاقته وفي حدود منفعته وهي تجود ، وفي مدارها المرسوم لا تحيد عن غايتها ولا تميد ، سبحان من خلقها وسخرها ، وأرسل للنفوس سراجها وهدايتها ، فجعل حياة النفوس دينا ، ودين النفوس حياة . وأنت تعرف أن الحياة « حياة الأجسام » ترتبط بروح هي من أمر ربي ، وكذلك الحياة « حياة النفوس » ترتبط بدين هو من أمر ربي : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢] ، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [سورة الإسراء : ٨٥] .

والروح تظهر بأثرها في الإنسان سمعًا وبصرًا وإدراكًا .

والدين يظهر بأثره في النفوس عدلا وإحسانًا وطهرًا وبرًا .

وإذا أنت تأملت أي جزء من أجزاء الكائن الحي ألفيت أن الروح عاملة فيه ، وكذلك الدين إذ أنت نظرته في حقيقته ألفيته قائمًا بأثره في أية قضية تعرض وفي أية جزئية ترد .

لذا فإن الباب الرابع الذي نتحدث فيه عن مشاكل الإنسانية وقضاياها

لا يمكننا أن نقول معه : إن في الإسلام جزءًا يسمى المعاملات ، بل نقول : إن الإسلام حقيقة تبعث الحياة في العقل والوجدان فتسمى عقيدة ، وفي الأركان فتسمى طاعة ، وفي شئون الخلق فتسمى معاملة .

حقيقة لا يمكن تقسيمها أو تجزئتها ، أو تسميتها بغير حقيقتها « الإسلام » . وهي كما قلت كحقيقة الشمس في عالم الطبيعة تعمل في أجزائها المختلفة ولا يمكن تخصيصها لشيء من أجزاء الطبيعة أو تسميتها به .

هي سبب في استكمال الزرع وليست زرعًا ، وفي نضج الثمر وليست ثمرًا ، وفي إضاءة القمر وليست قمرًا ، سبحان من جعلها لكل ذلك سببًا .

ويمكنك على ضوء هذا أن تقول في مجال الدراسة :

الشمس والنبات : لتتعرف على أثر الشمس في النبات .

الشمس والإنسان : لتتعرف على أثر الشمس في جسم الإنسان .

وكذلك نحن هنا نقول :

الإسلام والفرد : لتعرف أثر الإسلام في حياة الفرد .

الإسلام والمجتمع : لتعرف أثر الإسلام في حياة المجتمع .

الإسلام والعلاقات الدولية : لتعرف أثر الإسلام في علاقات الدول بعضها مع بعض .

الإسلام والعلم : لتعرف أثر الإسلام في المعارف الإنسانية على اختلافها وتنوعها ، وهكذا في كل ما يعرض من مشاكل وما يرد من قضايا .

ولذا سنرى أن الباب الرابع وثيق الصلة بما سبقه من أمر العقيدة والعبادات والأخلاق ، لأن الحقيقة الواحدة عاملة في الكل ، في وجدان الإنسان بالطمأنينة واليقين .

وفي أركانه بالطاعة والانقياد ، وفي سلوكه بالطهر والأخلاق ، وفي معاملته بالحق والعدل وكل ذلك عبادة يتقرب بها إلى الله .

وإذا كانت الشمس في عليائها تمسك عالمها بإذن ربها وتؤلف بين كواكبها بإذن خالقها وتجعل من مجموعتها وحدة متماسكة بسر باريها – فإن الدين يمسك بزمام الإنسان كله ، ويجمع الإنسانية على طهره وبره ويوحد بين الخلق بوحدانية ربه ، وخالق الشمس هو منزل الدين ، كلاهما أثر لقدرة وحكمة رب العالمين .

وإذا كانت للشمس حقيقة قائمة ساطعة يشار إليها بالبنان فإن لحقيقة الدين كتابا قائمًا مشرقًا مبينا مباركًا محفوظًا هو القرآن .

وسنرى أن الروح العالمية لهذا الدين سارية في كل أمر من أموره : ملاحظة في كل قضية من القضايا التي تعرض له .

سنرى عالميته في صلاته ، وصومه ، وزكاته ، وحجه ، بعد عقيدته .

سنراها فيما يطلبه من سلوك وما ينشده من خلق .

سنراها في نظرته للفرد ، وفي علاجه لمشاكل المجتمع وعلاقة الأمم ، وفي شئون الاقتصاد وعالم السياسة ، وفي مجال العلم والمعرفة .

إن الشمس هنا وهناك في الشرق والغرب حقيقة واحدة في الماضي والحاضر والمستقبل . والدين الخالد هنا وهناك في الشرق والغرب لا يمكن إلا أن يكون حقيقة واحدة في الماضي والحاضر والمستقبل .

الدين للجميع لا يختص به جيل دون جيل ، ولا يمكن أن يكون لقبيل دون قبيل : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة يس : ٧٠] .

وبعد هذا التعريف بالبابين : الثالث والرابع . نبدأ معتمدين على الله في الحديث عن الباب الثالث .

مبتدئين بالإيمان بالله واليوم الآخر .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٧ - ٦١]

(١) الإيمان بالله واليوم الآخر

نود أن نعرف أولا من أمر الحياة أن الناس يمرون بالدنيا ولا يقيمون وأنهم جاءوا إليها بلا اختيار ، وسيخرجون منها أيضا بلا اختيار : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [سورة لقمان : ٣٤] .

وأن الإنسان لا يعيش وحده بل يمضي في جيل يرى أمره بين إقبال وإدبار وحل وترحال ، يستقبل ويودع ويأنس بمن يأنس ، ولا يلبث أن يُشَيِّع أو يُشَيَّع .

وأن الإنسان يمضي في سلسلة متصلة الحلقات قد تتفرع وتمتد هنا وهناك ، ولكنها موصولة على كل حال ، تنتهي إلى أصل واحد وهي مسوقة إلى نهاية واحدة ، هناك إذن مصير عام مشترك ، وتشابه وتشابك يدعوان إلى مباديء عامة تؤلف وتجمع ، وتبر وترحم وترعى إنسانية الإنسان ، وتسخر كل شيء لخدمته ، فيحيا الناس في ظل فضائل النفس أخوة متعاونين ضيوفًا على الله متحابين متصافحين .

هذه المباديء لها ما يعينها من صلة الرحم ، إذ الناس جميعًا أخوة لأب واحد ومن صلة الرحمة إذ هم جميعًا أثر لقدرة الواحد الرحمن الرحيم .

ومن هنا نستطيع أن ندرك المبادئ التي تنظم الحياة كلها ، فتبقي على الإنسان إنسانًا بفضائله وإيمانه وخلقه ، ولا تحوله حيوانًا شرهًا بغرائزه وضراوته وشهواته . وتصور ما يكون عليه مجتمع ينقلب أفراده إلى ذئاب تتربص وتفتك وتحيا معتدة بالظفر والناب .

لنا إذن أن نتعرف إلى المبادئ التي ترعى إنسانية الإنسان ، وتحفظه حرًا فاضلا عاملا كريمًا ، آمنًا مطمئنًا بارًا رشيدًا ، متعاونًا صادقًا وفيًا رحيمًا .

المبادئ التي لا تنقلب الحياة معها مسرحًا للوحوش الضارية ، والذئاب الغادرة ، والطباع الخسيسة ، والشهوات الرخيصة .

المبادئ التي تحقق أبر ما يطلبه الناس من عدل ، وما ينشدونه من حرية ، وما يرجونه من رحمة ، وما يحلمون به من أمن وسلام .

ولعل الإنسانية في عصرنا هذا وقد عاشت في ظلام المادة واكتوت بلهيبها المسعور ، فهي في أوج حضارتها تدمر ما تعمر وتسوق الفناء إلى ما شيدت من بناء ، لعلها وهي في حيرة الظلام وظلام الحيرة – تلتمس النور والضياء ، لتحيا آمنة مطمئنة بعد أن سلبتها حضارة المادة استقرار النفس ، وستجد في خصائص إنسانيتها التي جمعها دينها وإسلامها المشكاة الهادية التي تبصر الإنسان بأخيه فلا تتركه يتردى في ظلام القبور !

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾

[سورة الحج : ٤٦] .

ولنا أن نقرر : أن الإنسانية لن تجد هذه المبادئ التي توحد جمعها وترعى سلامها وتؤمن إنسانيتها إلا فيما بَيَّن الإسلام من عقيدة وما فرض من فرائض وما شرع من أحكام ، ولنر ذلك أولا في عقيدة الإسلام الخالدة .

١ – الإيمان بالله واليوم الآخر : فإننا إذا تأملنا هذه العقيدة راعنا من أول وهلة اتصال حياتين :

حياة مؤقتة : نعرف أمرها ونرى مصير الأحياء فيها ، وهي الحياة الدنيا .

حياة باقية خالدة : والإقامة فيها دائمة متصلة ، وهي تبنى على سلوك الإنسان في الدنيا ومدى استعداده لها .

واتصال الحياتين أولا يهذب الأولى ويضمن السلام والاستقرار في الأخرى ، وانفصالهما في الاعتقاد يشيع الفساد في الأولى ويذهب بأمن الأخرى واستقرارها وتأمل حياة إنسان يدرك أنها « دنيا فحسب » . لابد من المكاثرة والمغالبة ، لابد أن يحظى منها بأوفر نصيب ، بأي سبب ومن أي طريق .

فمرحبا بالظلم إن حقق لذة ! ومرحبا بالغدر إن أحرز غنيمة ! ومرحبا بأية صفة تأتي بمنفعة ذاتية عاجلة ! بل واحسرتاه إن فاته المطلوب أو أبطأ المرغوب ! وسلوك هذا شأنه لابد أن تسود معه شريعة الغاب وأن تتحكم فيه طبائع الوحوش !

بيد أن الإنسان في طغيانه أمضى من الوحش في تدبيره ، وأقوى منه في التوائه وخبثه ، إذ هو يخضع لضراوته وشهواته .

الحيوان إن شبع امتنع ، والإنسان الانفصالي إن شبع جشع ، وإن ارتوى ظمىء ، وإن امتلأ تطلع ، وإن تطلع بغى وعربد ، وإن عربد طغى وأفسد ، وهي في نظره دنيا فحسب إذا غاب رقيب الدنيا فلا رقيب وإذا لم تنله يد البشر فقد فاز في ميدان المغالبة والمكاثرة بأوفر نصيب ، الحيوان لا يحتكر طعاما وقد شبع ، والإنسان الانفصالي يحتكر طعام بلد أو أمة ، لأن شراهته تأبى عليه إلا أن يكون كذلك ، يحيا بدماء الناس وهو رضي ويأبى إلا أن يضرب على أنفاسهم وهو في عرف الانفصال « ذو حظ ندي » .

انظر ما يكون عليه حال الدنيا فحسب على يد أناس ظنوها كذلك فانحصروا في دائرة أنفسهم وأنانيتهم ومطالبهم التي لا تحد ولا يعرف لغريزة التملك فيهم أي حد .

أول ما تفقده الدنيا على يد هؤلاء الأمن والسلام ، والراحة والطمأنينة ولا تسل عن الوفاء والصدق ، والإيثار والحب ، والعدل والحق ، والبر والرحمة ، فهي صفات عند هؤلاء تذكر إن جرت مغنما ، وتنكر إن حملت مغرما !

كل هذا يقع حين يتم الانفصال في الاعتقاد ، أو بمعنى أوضح حين يكون السلوك على أنها دنيا فحسب ، ومعناه خراب فحسب ودمار فحسب !

وهذا ما نلمسه فعلا في عصرنا الحاضر على يد أصحاب الحضارة المادية الذين وقفوا عند حدودها ، فغالبوا عليها ، وفجروا من أجلها .

غير أننا إذا تأملنا ما ينتجه اتصال الحياتين راعنا من أول وهلة سبيل الإسلام السوي في إفاضة الخير على الناس ، وإشاعة البر بينهم .

وهو يحقق ذلك بالمبدأ الخالد : « الإيمان بالله واليوم الآخر » .

حياة متصلة ، تخف هنا بحق حدة التوتر ، فلا تباع صفات الإنسان في دنيا المغالبة والمكاثرة وقد وعت النفوس : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة التكاثر : ١ - ٤] هنا تجد الإنسان المعتدل الذي لا تطغيه النعمة ، ولا يذله الفقر إن أقبلت الدنيا بنعمائها سخرت لمنطق الإيمان الرشيد الذي يدرك ما للنعمة من أثر ، وأن الإنسان بها مبتلى ومختبر .

منطق الإيمان المتبصر المستنير حين يرى نعم الله تفيض من كل جانب .

الجبال تؤوب ، والطير تسبح .

الشياطين تعمل بجد وإخلاص ما بين بناء وغواص .

والريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب .

علم سليمان منطق الطير وأوتي من كل شيء : ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة النمل : ١٦] .

في ملكه من يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يقوم من مقامه ، وفي ملكه من يأتيه بعرشها قبل أن يرتد إليه طرفه .

منطق الإيمان الرشيد مع هذا الفيض من النعم : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النمل : ٤٠] .

هنا تجد أثر الاتصال بين الحياتين : اليقظة الكاملة ، والإدراك السليم لحقيقة النعمة : ﴿ لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ .

والنفس لا تجد جزاء شكرها بحق إلا هناك : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [سورة آل عمران : ٣٠] .

في ظل هذا الاتصال تجد الخضوع للخالق والاعتراف بفضله ، فتجد البر الصادق بعباده في سخاء لا من فيه ولا أذى ، فتمضي النعمة في طريقها الطبيعي خاضعة للمثل العليا ، خاشعة للإيمان بالحق ، لا تتغير معها النفوس بين إقبال وإدبار ، بل تتغير هي بفعل النفوس البارة إلى بر ، وبعمل القلوب المجاهدة إلى سلاح على البغي .

تأتي النعمة مع هذه النفوس وتلك القلوب إلا أن تتحول إلى معنى التواضع والعدل والبر والرحمة والجهاد والبذل والتضحية .

وهذه صفات النفس المستقرة التي أقبلت عليها النعمة فأبت إلا أن تتخلق وتخضع لصفات النفس وتمشي في ركابها خادمة طيعة .

وتطويع النعمة للصفات أمر لا يعين عليه إلا الإتصال بين الحياتين إذ يدرك الإنسان معه أن النفس خالدة في معانيها

فهي من خيرها في خير أبدا ، ومن شرها في شر أبدا .

فهذا أثر من آثار الاتصال يتحقق معه الاعتدال الذي تطلبه الدنيا فتجده عند نفوس لا يطغيها الغنى ولا يذلها الفقر ، لأنها عزيزة بما لديها من الحق الثابت واليقين المستقر .

ولقد قلت : إن اتصال الحياتين في الاعتقاد يهذب الأولى ويضمن السلام في الأخرى وأضيف هنا : أن الاتصال يعمرهما معا ، يعمر الدنيا أولا بنفوس ترى إيمانها في سعيها وسعيها بدافع من يقينها ، فهي تعمل دائما في غير يأس أو قنوط ، وما كان اليقين دائما إلا باعثًا على الأمل والعمل .

والأمل مع اليقين ليس شيئًا مؤقتا يتحول إلى قنوط إذ أبطأ المطلوب بل هو مستقر استقرار اليقين في القلب يمتد ويتسع كلّما عظم الكرب واشتد .

وتأمل عمل اليقين مع مؤمن فقد من البلاء بصره ، فجدد اليقين أمله وأفسح رجاءه : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٧] .

وكأني والله أرى في منطق الرجل حركة النفس وحركة الحس معا : اذهبوا ، تحسسوا ، لا تيئسوا .

فأية قوة يمكن أن تقابل بها أحداث الحياة مثل هذه القوة ؟ وأي رجاء يمكن أن تستقيم معه شئون الحياة بعد هذا الرجاء ؟ بل أية حركة عاملة مهذبة يمكن أن تنبع من نفس المصاب فتدفعه إلى عمل الدنيا والآخرة ولا تدعه يهوي صريع الألم واليأس والانقباض والحسرة ؟

لا أخال الذين يتحدثون عن التواكل في ظل هذا الشموخ الفذ للعواصف الهوج إلا قوما طلبوا الدين في جثث الموتى الذين كتبت على قبورهم إعلانات مظلومة « مسلمون » . ولو طلبوه في تربته الحقيقية وأخذوه من معينه الأصيل لوجدوا أنفسهم

أمام حركة لا تهدأ ، وإزاء فطرة رشيدة تتخذ من تعمير الدنيا واكتشاف مكنوناتها سبيلا إلى الخشوع في محراب الخالق والتوصل إلى جناته ، ووجدوا أن الحركة هنا ليست لغرض محدود أو رغبة طارئة ، تتوقف إذا تحقق الغرض ، وتنتهي إذا انتهت الرغبة بل هي كما قلنا حركة الدوام ودوام الحركة موصولة باتصال الخلق متصلة بدار الحق .

وفي مجال الحركة الدائبة الموصولة المتصلة يذهب الفقر إذ هو من شهوات النفس وقد استقام أمرها وطاب سعيها ، ويختفي الجهل في مجال السعي في كل سبيل . فنحن نرغب في العلم ونطلبه فرضا ولو في الصين ، ونبذله بارين غير طامعين ولا مغتصبين .

ولا مجال للمرض في أرض وئد فيها الفقر ، وشاع العلم والتقى الناس على خير وبر .

وتلك المنغصات الثلاثة التي جلبها فقر النفس ، حوربت في ظاهرها ولم تقتلع من جذورها .

وفقر النفس لا يعالج بالمعونات المغرضة والهبات المفتعلة والمنح الطارئة تبذل هنا أو هناك ، بل يعالج يقينا بالعنصر الفعال : « الإيمان بالله واليوم الآخر » . وهو عنصر يرفع العازل عن القلب من شهوات الهوى وضلال الإثم ، فتلتقي الفطرة بعزها وغناها فتفيض بالخير وقد اتصلت بمبدئه ، وهي ترجوه بسعيها وتقصده .

وأراني بدأت باليوم الآخر من حيث نتائجه ولم أتحدث عنه من حيث حقيقته أو صدق وقوعه .

أما وقد استبانت النتائج الطيبة التي يجنيها الناس في دنيانا تلك من اتصال الدارين وتأثر السلوك به .

فقد وجب أن نتحدث عن الإيمان بالله لندرك منه حقيقة اليوم الآخر ، وأنه صدق واقع .

فما اليوم الآخر في الاعتقاد إلا وليد الاعتراف بالأول والآخر والظاهر والباطن وأنه بكل شيء عليم وهو على جمعنا إذا يشاء قدير .

لكنني سارعت إلى نتائج اتصال الدارين لأن الناس على الدنيا مقبلون ، ومن دواعي الاغراء أن يطمئنوا على دنياهم وقد أحبوها ، فيقبلوا على ما يبعث الأمن والطمأنينة فيها .

وعلى طمأنينة الأمر وراحة الأمن نقدم قضية « المنطق والوجدان » ، « قضية الإيمان بالله » .

جرى على لساني وأنا طفل صغير دون العاشرة كلمة لم ألق لها بالا . ما زلت أشعر بالسعادة تغمرني كلما ذكرتها .

قال لي خالي مداعبا وكنا في حقله : إما أن تعمل كذا أو تنصرف من أرضنا .

فقلت له : إنها ليست أرضك ، وإنما هي أرض الله .

وظل رحمة الله يذكرني بها حتى بعد تخرجي من الأزهر .

وكلما تقدمت بي الأيام شعرت بجلال الكلمة وصدقها .

فقد مات الرجل رحمه الله وبقيت الأرض لله يورثها من يشاء من عباده .

وزاد من تقديري للكلمة أن العقل شارك الوجدان في صدقها والترحيب بها .

كل شيء في الوجود هاتف بجلال الله خاشع بعظمته مسبح بحمده .

ولم أر في طبيعة المخلوقات عصيانا من حيث الفطرة : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [سورة يس : ٣٨ ، ٣٩] . ونرى أفواج العباد تقبل لترى من آثار قدرة الله ولا تلبث أن ترحل .

ولم نر إنسانا حاز شيئا مما أرى أو ملك شيئا مما أبصر .

وكان من الواجب أن يكون لهذه الآيات الكبرى أثر في السلوك الإنساني أي أثر .

ولنا أن نتساءل أو نسائل هذا الركب السائر : إذا لم يكن هذا الكون لله فلمن يكون ؟

أللإنسان ؟

الحق أن الإنسان مستخلف وليس بمالك ، فكيف يبقى المملوك ويذهب المالك ؟

وإذا انتفى أن يكون للإنسان فلمن يكون ؟

ما صدق على الإنسان يصدق على المخلوقات الأخرى !

هل يمكن أن يملك الشيء نفسه ؟ هذا ساقط بداهة في منطق العقل فلا يمكن قيامه في مجال الواقع .

هذا الكون لابد له من مالك مدبر ، وإذا نحن ساءلنا الوجدان عن مالك الكون أجابنا أنه الرحمن .

ولو طالبنا منطق الفكر لأثبت أنها قوة مصرفة غالبة ، تلك التي تصرف الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب .

قوة إذا استقصينا أثرها وجدنا من صفاتها الوجود الدائم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والحياة والعلم والحكمة .

ولم أر الوجدان والعقل التقيا على قضية من القضايا فسما كلاهما ظافرين بحكمة اليقين ويقين الحكمة إلا في قضية « الإيمان بالله » جل وعلا .

كما لم أر خلقا دل على خالقه كما دلت مخلوقات الكون مرئيها وخفيها في شتى

صورها واختلاف ألوانها على عظمة الخالق وقدرته

ومن رحمة الله بالناس أن يظهر هم بأثره وأن يدركوه في خلقه حتى لا يتوقف عمل الفكر وتحجب خصائص الإنسان

وبديهي أن وجود الأثر العظيم من غير أن يظهر المؤثر أقوى في النتيجة والدلالة وأدعى لإبراز الخصائص وشحذ الهمم والعزائم من ظهور مؤثر لا أثر له [١] .

أو ظهوره مع أثره ، وفي هذه الحالة يستوي في معرفته أعلى الحيوانات وأدناها كما تتوقف الحضارة التي هي نتيجة بحث دائم وعمل مستمر وراء الحقائق الخفية التي كلما اكتشف شيء منها تطلع العقل البشري إلى حقيقة أكبر ، وهكذا يأبى الأثر بصورته المحكمة المتقنة إلا أن يدل قطعا على المؤثر .

فالكون باتساقه العجيب يخدم قضية الإيمان مع تسخيره لراحة الإنسان : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سورة ق - ٨]

قضية الإيمان إذن « قضية فكر ووجدان » .

وهي في الإسلام ليست بمعزل عن الحياة ، تصاغ في نظريات فلسفية أو عمل فكري تدفع معتنقيها إلى رهبنة العزلة أو عزلة الرهبنة فتتنكر بذلك لغرائز الإنسان وطبيعته وتأبى عليه أن يحيا متعاونا مع فطرته ، لا .

ليست قضية الإيمان في الإسلام كذلك ، وإنما هي فطرية سمحة ، حنيفية معتدلة هي عمل الفكر في الكون للانتفاع بما فيه ، وعمل الكون في الفكر بآيات تدفع على اليقين فلا يفتريه ولا يدعيه .

---

(١) باطلة منطقيًا وواقعيًا

قضية الإيمان في الإسلام ليست بمعزل عن الحياة ، وإنما هي الحياة نفسها ممثلة في اتساق الإنسان مع هذا الكون وعدم نفوره منه ، وهي تقوم في المصنع بالإتقان والإحسان ، وفي المتجر بالصدق والأمانة ، وفي المزرعة بالصبر وحسن الرعاية ، وفي كل عمل بيقظة الضمير وخشية الخالق .

هي قضية تدخل إلى حياة الفرد والأسرة والمجتمع بالقول والفعل كما هي في الفطرة والخلق فتلتقي الفطرة مع السلوك ويمتزج عمل الدنيا بحياة الآخرة .

قضية الإيمان في الإسلام قضية بر ووفاء ، وحب وإخاء ، قضية عصمة الفرج بزواج كريم لا برهبنة أو سعي أثيم ، قضية العصمة للفكر باليقين لا بالشك والإلحاد ، قضية طهر اللسان وسلامة الوجدان ، قضية اليد البارة والعين العفيفة والسمع الطهور ، قضية الإيمان في الإسلام ، قضية فرد ومجتمع ودولة ، قضية سلم وحرب ، قضية جهاد وبذل ، قضية سيف وقلم ، قضية عرب وعجم ، قضية شمول وإحاطة ، قضية نظام وسياسة .

وهي لهذا تقترن باليوم الآخر .

فيتم للمقدمة الصادقة وفاؤها بالنتيجة القاطعة .

والمقدمة هنا تفي بالنتيجة قطعا ، دنيا لابد من آخرة .

خلق عجيب ونظام دقيق لا يمكن أن يكون عبثًا .

إنسان يحيا هنا ظالما أو مظلوما ممتلئا أو محروما في كون آياته الكبرى لا تظلم ولا تحيد : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة يس : ٤٠] يأبى من أقام هذا النظام وخلق الإنسان إلا أن يسوقه لساحة العدل ، وأن يدخر أمره لميقات يوم : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٨] ، ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الحَقِّ وَضَلَّ عَنهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [سورة يونس :

٣٠] ، ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٤٧] .

الدنيا مقدمة ، والآخرة نتيجة ، وإذا صدقت المقدمة بالإبتلاء والإختبار فلابد أن تفي النتيجة بالحساب والجزاء وهو أمر بدهي في منطق الإيمان المستبصر المستنير ، ولكنه عصي في غيبة الإيمان بالله العلي القدير .

كيف لا والله الذي دبر أمر الدنيا بالخلق والإيجاد ، وقامت آياته البينات تشهد له بالإحاطة والتدبير والعلم والقدرة – قد جعل لدار السلام والإستقرار مقدمة سعي مشكور وعمل بار ، زودهم فيها برسله وآياته وكتبه لترتفع من حياتهم وحشة الظلم ، وتمضي الفترة في أمان العدل والبر والحق والتعاون والحب .

كيف يرضى الخالق القوي القادر الذي حرّم الظلم على نفسه أن يترك هذا الخلق بلا حساب وإنصاف وقد قامت آياته في الكون على النظام والعدل ؟

حاشا لله أن يكون خلق الإنسان لهذه الفترة التي استحالت فيها نعم الله على يد البشر نقما تشيع في الأمم الذعر والخوف وتذهب بالطمأنينة والأمن !

لابد من حساب بين يدي الخالق ، رب الدنيا والآخرة ، وهو رقيب محيط يعلم أمر الخلق ولا تخفى عليه خافية ، يقوم على الآخرة والرقاب له خاشعة .

نؤمن به هنا فتستقيم الحياة ، وتمضي في موكب خاشع لساحته فنجد جزاء السعي : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [سورة آل عمران : ٣٠] ، ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف : ٤٩] .

وقيام الأمر على هذه الصورة الكاملة الصادقة يجعلنا نتقبل الحياة هنا ببسمتها وبكائها وعطائها وحرمانها ، ولقائها وفراقها ، موقنين بأنها تمهيد لغاية ، وأنها بيد الله

وحده الذي نتقرب إليه بالكلم الطيب والعمل الصالح .

فنجد الإيمان به يضع لنا في كل شيء خلقه : في المصيبة خلق الصبر ، وفي النعمة خلق الشكر ، وفي الصحبة خلق الوفاء ، وفي الجهاد رف الغاية ، وفي كل عمل روح الإخلاص ، وفي النصر خلق التواضع ، وفي البذل خلق السخاء في غير منّ أو إيذاء ، وفي العلم خلقه بلا جدل أو مراء .

وهكذا نجد الإيمان بالله واليوم الآخر يمنح الدنيا رشدها وخلقها ، ويعطي الآخرة حظها ونعيمها ، ويمسك بزمام الإنسان راشدا في الدنيا موصولا بالآخرة ، فتستبين الحكمة من الخلق ، ويرتفع العبث من منطق الفكر وعمل القلب ، فتمضي الحياة ندية بذكر الله ، وتأتي الآخرة مستقرة آمنة بوحي الله .

فالإيمان بالله خالق الدارين أمر لابد منه لصالحهما معا .

والشرك بالله كما يسوق إلى الدنيا الخراب يورث في الآخرة الشقاء والعذاب : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [سورة الحج : ٣١] .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٢٤ - ١٢٧] .

قلت : إن الإيمان بالله يضع في كل شيء خلقه ، أي يضع فيه عنصر النجاة ، إذ يجعل إنسانية الإنسان هي التي تسيطر على شئون الحياة وهي التي تسرع به إلى الخير عملا وتخليدا : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝

وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٤ - ٦٠]

ولم أر سفينة برت بصاحبها وأمنته من العواصف الهوج والأمواج المظلمة الصاخبة مثل ما فعلت سفينة الخير ، سفينة الإيمان بالله : برت به في الدنيا فطردت اليأس من قلبه ، وبعثت الطمأنينة فيه بذكر ربه ، وجعلت الأحداث تبنيه ولا تهدمه ، والمصائب تعليه ولا تصغره .

أقامت في نفسه الغنى فبذل ما في يده للناس ، وأحاطت نفسه بالقناعة فطمعت في الفضائل ، وهي بضاعة تزكو بالتنافس عليها ، وتنمو إذا أخذ الجميع منها .

غير أنها تربط بين طالبيها برباط وثيق تجمعهم ولا تفرقهم ، تشيع بينهم الإيثار والحب وتقضي على عوامل الأثرة والبغض .

ولم أر جمعا توجه إلى سبيل واحدة فتوحد قصدا وعملا مثل الركب المتجه إلى الله ، فهو ركب تخشى ذئاب الهوى أن تقترب منه ، وتأبى نوازع الشر أن تنزل بساحته !

هو ركب يجير من استجاره ، ويفي لمن تعهد له ، يقول الحق ولو على نفسه ، ويعدل في حكمه مع ألد أعدائه .

هو ركب لا تربطه قرابة أو نسب ، فلربما كان الابن فيه وليس الأب ، لأنه رباط على الإيمان بالله وهو أبر حَسَبٍ وأكرم نسب .

ويأبى الله إلا أن يجعل للمؤمنين على يد نبي من أنبيائه سفينة تحملهم وتمضي بهم في موج كالجبال في دنيانا تلك ؛ ليدرك الركب الإنساني إلى أن تقوم الساعة ما لسفينة الإيمان من أثر وليأخذ من أمرها عظات وعبرا .

هذه السفينة تراها سابحة خالدة على صفحة من صفحات الكتاب الفطري ، استقرت ليشهد الناس أمرها ، وبقيت ليدرك العقلاء سرها ، ودخلت ضمن من تكفل الله بحفظه ، وخلد ذكرها في قرآن يتلى فتخشع له القلوب ، وفرقان يتردد فتسمع في نغماته لحن الخلود ، لأنها سفينة الإيمان بالله .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ ﴾ [سورة هود : ٤٢ ، ٤٣] .

توهم العصمة في جبل يحميه ، ولم يدر أنها في عمل صالح يجد نفسه فيه .

وما كان للطوفان الثائر الغاضب الذي اشتركت في ثورته عيون الأرض ومنهمر السماء أن يهدأ أو ينسحب قبل أن يطوي في جوفه وظلامه من تنكر لإنسانيته وإيمانه .

أراد الله أن يجعل في تاريخ الإنسانية سفينة للإيمان تجري بالمؤمنين في موج كالجبال ؛ ليعرف قدر الإيمان ، ويدرك الناس أن الطبيعة زمامها بيد الله .

وهو يجعل من عمل الطبيعة المسخرة ما يحطم به أوثان الشرك وأوهام الباطل .

صرخة من قلب من آمن به ودعا إليه : ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾

[سورة القمر : ١٠] .

أجيبت وهي تساق للأجيال ماضية بالعبر : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [سورة القمر : ١١ - ١٤] أي والله تجري بأعيننا ، رعاية وحفظا ، لسفينة الإيمان بالله وهي تجري وسط أمواج صاخبة مستعلية تبطش بالشرك ولو اعتصم برءوس الجبال أو طار مع النسور ، ولو كان المعتصم أو الطائر ابن نبي ورسول : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [سورة القمر ١٤] .

والإنسانية اليوم يغمرها طوفان الهوى وتلاحقها أمواج الباطل في ظل الحضارة المادية الظالمة المظلمة ، وليس أمامها وهي تجرب سبل الإنقاذ وتكاد تلفظ أنفاسها الأمواج المتلاحقة والطوفان الغامر – ليس أمامها – إلا سفينة الإيمان بالله .

ولننظر إلى حالها لنر صدق ما نقول :

إن أية حضارة تستهدف راحة الإنسان وكرامته « لأنها قامت به وله » فهل الحضارة المادية كذلك ؟

أين الإنسان أولا في ظل الحضارة المادية حتى تستهدف راحته وكرامته أو لا تستهدف ؟

إنه مسخر لها وليست مسخرة له ، طوعته هي للآلة فأفسدت مشاعره وعواطفه ، وأطاعها فذهبت بأمنه وسلامته .

إن الإنسان في ظل الحضارة المادية عبد غريزة وشهوة لا إنسان فضيلة وخلق .

ثم هي تدعي أنها منحته الحرية والمساواة في العالم الحر ، وحققت العدالة والرخاء على يد أتباع ماركس ولينين .

مرة أخرى أين الإنسان حتى تمنحه ما تدعي ؟

والمادة الغشوم تتوعده ليل نهار بالخراب المدمر والظلام المسيطر .

أين هو الإنسان وقد نزعت الحضارة المادية قوته الضروري وسلبته أمس خصائصه ، وملأت دنياه بالفزع والاضطراب ، وأشاعت في نفسه الغم والهم ، ثم ادعت أنها منحته الحرية والمساواة وحققت له العدالة والرخاء ؟

نعم سلبت الحضارة المادية قوت الإنسان ، وتركته طريد بؤس وشقاء ، ثم حولت هذا القوت إلى مادة .

انطلقت باسم القوم في تجربة أشاعت بغبارها الموت البطيء لا للإنسان فحسب بل للإنسان والحيوان والنبات والحياة .

وأصبح العالم في يومه وغده مهددا بعاهات خلقية من جراء التجارب النووية التي يتفاخر بها ويتسابق عليها في إصرار أصحاب العاهات الخلقية عبيد الفلسفة المادية .

قنابل ذرية ، تجارب هيدروجينية ، صواريخ عابرة للقارا ـ ، سموم تهب هنا وهناك !

أخلاق القوم وضعت في مخازن وعاش القوم بلا أخلاق ، وتقدموا إلى الشعوب يسلبون قوتها ويغتصبون أرضها ، فإن هي استعصت أو أبت هددوها باستعمال المدمرات !

ومن عجب أن تنطلق ألسنة القوم تعظ باكية على السلام العالمي المهدد وحرية الشعوب المغتصبة ، تعظ من ؟

تعظ الفريسة ، فريسة الصراع بين قوى البغي والتسلط !

ثم بدا للقوم أنهم مهددون بمخزون الأخلاق ، فأخذوا يعظون الإنسانية بخطرها ويطالبون بإيقافها وتدمير المخزون منها .

وأين الثقة في ظل حضارةالمادة ؟

وتسأل عن الشعوب الصغيرة في حضارة المادة وسيطرتها ، فلا تلبث أن تراها تحيا بأخلاق الصغار ، ولا بأس أن تتخلق بأخلاق الكبار ، إن هي ملكت مثلهم أسباب الخراب والدمار .

عدوى المدنية سرت ، وخلق المادة تحكم ، وسلطان الهوى طغى وفجر !

ونسأل مرارا وتكرارا أين الإنسان الذي منحته الحضارة المادية الحرية والمساواة والعدالة والرخاء ؟

فيجيبك الواقع أنه ضائع بين سهر الليل وكد النهار ، شارد بعقله وراء اللقمة الشاردة والعيش المفقود !

أين الإنسان يا أصحاب الحضارة المادية ؟

ربما أجابتك حضارتهم : بعد قليل سنمهد له سكنا في القمر وسكنى في البروج ، وستكون المواصلات هينة سهلة ، فسفينة الفضاء قد جربت مع الكلاب والقطط والفيران والقرود ، فيعود بالحكمة والمعرفة إلى عالم الأرض الذي لم يدر بعد أن رزقه مرتبط بالرحلة التي بدئت على أيديهم بالفيران والكلاب والقرود .

وهذا من حسن الطالع للسكن الجديد .

ومن الفأل الحسن أن يتبدل سواد الفأر [1] ، فلعل هذا يؤذن للإنسانية بأيامها البيض .

يا رجال الحضارة المادية ، اسكنوا الشمس ، اسكنوا القمر ، اعملوا ما شئتم ، ولكن خبرونا أين الإنسان الآمن المطمئن في حضارتكم ؟

يقول الكبار : ستجده مطمئنا هادئا بعد تجربة الفيران ، إذ ستتحول التجارب إلى غزو الفضاء ، وسيكون أول من يسعد بذلك هو الإنسان ، فالرحلة ممتعة والفضاء جميل .

وكأني برئيس علماء الذرة يقول : مهن هذا الذي يتهكم بالعلم وأهله وما صنع لراحة الإنسان ؟

وطاب لي أن أقول له : لم أع ما تقول ، لأن من ورائي زغبا جياعا ، بحثت قوتهم فوجدته بين يديك سلب قسرا ، وجاء إليك لتخرجه من معملك جحيما مسعورا تشيع به إلى باطن الأرض جياعها ، وتقضي عليها أن تئد ما تلد ، وتلك

---

(١) من أنباء سفينة الفضاء : « أن الفأر ابيض لونه في الرحلة » .

أحدث طريقة للبر بوالد وما ولد .

لكنني أمسكت لأنني أدركت أن الرجل والد وله ولد ، ويأبى الإيثار عليه إلا أن يمدك مع أهله وذوي قرابته بما حصد .

وبادرني سائل فقال : أتنكرون على العلم وثبته ؟

قلت : لا ، ولكننا ننكر حيرته ، نطلب هدفه وغايته !

قال : وهل بعد صعوده القمر ورجوعه منه بخبر تراه قد حاد عن الغاية وتنكر للبشر ؟

قلت : يا هذا لا تظلم العلم ، فهو الآخر مهدد بالضياع على يد مَنْ بنعمة الله قد كفر .

غاية العلم : معرفة الحق وهداية الخلق وسعادة البشر .

لكنه على يد الماديين أنكر الحق وأضل الخلق وأشقى البشر .

العلم أداة كاشفة ، ونور لا يعرف الأثرة ، ولا يرضى أن يتخلى أو تتخلف عنه الأخلاق والمثل .

فهو يحب أن يؤمن نفسه وأن يسخر طائعا لسعادة الخلق وعبادة المنعم فهو يجزي من شكر ، وهو يدرك أن أمر الجميع بيد الرحمن إن شاء خسف بنا وقد ساق العبر .

لست أفهم لحضارة العلم بيننا بعد ما وهب الله مادته وأسبابه إلا دلالة واحدة « معرفة الخالق ، وبر المخلوق » .

وكلا الأمرين مرتبط بالآخر لا ينفك عنه ، إذ لا بر بالمخلوق وقد جحد الخالق ولا معرفة له وقد ظلم المخلوق .

ولا عيب على العلم في ذاته إذا الناس صرفوه عن غايته وحولوه عن هدفه ؛

فالشمس في عليائها وفطرتها تنسكب على الأرض بمنافعها تمد الناس بشعاعها ونورها فتجعل من ليلهم نهارا ، ومن زرعهم وغرسهم جنة وثمارا ، فما على الشمس أن أهلك الناس الزرع وقتلوا النسل والضرع .

ما على الشمس إن أفسد الناس ما أصلحت ، وهدموا ما أقامت .

والعلم والشمس ، نوران ، نور يراه البصر ، ونور تدركه البصيرة ، وكلاهما هبة الله إلى خلقه ، وعطاؤه لعباده .

فإذا غابت الشمس أقبل ظلام الليل ، وإذا غاب العلم أفسد الحياة ظلام الجهل .

فلا تقولوا عن العلم شيئًا ولا تظلموه ولا تفصلوا بينه وما يدعو إليه الدين الصحيح فتبطلوه .

لم يعرف التاريخ قط صداما وقع بين الدين الصحيح وحقائق العلم ، وذلك لأن الدين الصحيح يفيض على العلم من قداسته وتقديره ما يحبب النفوس إليه ويجعلها جديرة أن تذكر بعد الله وملائكته : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨] .

ولا عجب أن ترى الحق تبارك وتعالى يثبت الخشية منه للعلماء وحدهم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [سورة فاطر : ٢٨] .

وليس المقصود علماء الشريعة فحسب ، بل المقصود كل صاحب علم يتوصل به إلى معرفة صحيحة ينتفع الناس بها في دينهم ، ويتعرفون عظمة الخالق وآياته ، فتهتف قلوبهم بالشكر لله والاعتراف بنعمته ، والعلم بهذا المعنى يقدسه الدين ويرفع مكانته ، وهو العلم المشيد المعمر الذي يبني ولا يهدم ، ويصلح ولا يفسد ، ويجمع ولا يفرق : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة الزمر : ٩] .

والعلم لا يكون كذلك إلا إذا حملته نفوس مهذبة تحسن مراقبة الله وتخشى عذابه وتشكره على نعمه ، وتتقرب إليه في البر بخلقه .

وليس الدين بعد هذا مسئولا عن تزمت المتزمتين أو جهل الجاهلين ، ليس مسئولا عن الجهل يفرض عليه ، أو الهوى يتحكم فيه ، أو الجمود يقف حائلا دون مده والانتفاع به .

فالدين الصحيح وحقائق العلم متحدان : فالأول يفيض على الآخر من قداسته ، والآخر يكشف عن سمو الأول وطهارته .

وهما على وفاق دائم طالما بقيت للدين صحته وسلامته ، وللعلم ثبات حقائقه واطراد نتيجته ، وسلما معا من جهل الجاهلية وإفساد المفسدين .

ولعل في هذا ردا على من يريد أن ينال من الدين في شخص رجاله ، أو ينقص من قدر العلم لضيق خياله .

اقرأ أول سورة نزلت على محمد ﷺ تجد : القراءة ، العلم ، التعلم .

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلإِنسَانَ مِن عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [سورة العلق : ١ - ٥] .

ثم قف متأملا في قوله بعد ذلك : ﴿ كَلَّا إِنَّ ٱلإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾ [سورة العلق : ٦ ، ٧] يا لله ؟ يجيء هذا بعد القراءة والعلم !

وهل ينكر منكر بعد هذا عظمة القرآن وخلوده وأنه كتاب الله للعالمين ؟ ﴿ كَلَّا إِنَّ ٱلإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ ٱسْتَغْنَىٰ ﴾ .

ما العلاج إذن للطغيان الناشئ عن القوة والغنى الناشئين عن العلم ؟ ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ ﴾ [سورة العلق : ٨] .

وربك ، إن هذه الآية وحدها تحل مشكلة العالم الذي تجبر بالعلم ! وفجر

بالعلم ! وعربد بالعلم ! وأن المؤتمرات المنعقدة هنا وهناك لن تمنع سلطان العلم المادي أو طغيانه ما دام قد انفرد ولم يحظ بخشية الله وعرفانه .

وليجرب العالم أي أمن تراه الدنيا ؟

وأي سلام نابع من ضمير الفرد مسطر في فؤاده بوحي من دينه وعقيدته يوم يقف عند هذه الآية ويعرف حدودها : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ .

كثيرا ما تتعاهد الدول على شيء ثم تنقضه ، بل كثيرا ما تهتف بالسلام ثم تقوضه ، لكنها حين تقف عند حدود ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ ستجد سلاما صادقا تحرسه القلوب وترعاه الضمائر ، إذ ليس في ظله مظلوم وظالم ، وليس أمام عدله محكوم وحاكم . كما تجد أمنا من وحي الإيمان تطيب به النفوس ، إذ لا تفرضه قوة غشوم ، ولا يجني ثمرته مستبد ظالم ، بل يسعد به الضعيف ، وينشده القوي ، ويشدو به الطير وكأن الدنيا بالنسبة له « حرم آمن » ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ هي التي تحقق المعاني المظلومة التي يدعيها الماديون ، ولا تجد لها صدى في مجال التطبيق العملي : الحرية والمساواة ، والعدالة والرخاء .

كلمات تتردد على أفواه القوم ، يغرى بها السفهاء ، ويقع في شراكها البلهاء وهي كوحدات الحب توضع للعصفور لتغريه بالقرب ، فإذا ما اقترب وطعم أمسك الفخ بالرأس أو القدم .

لكنها معان غير مكذوبة في ظل اليقين الثابت والإيمان الراسخ والخشية الصادقة ولن تكون شراكا لصيد أو زلفى لعبد ، بل من إيمان برب ، تعلم يقينا أنها راجعة إليه ومحاسبة بين يديه : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ تأمل أثرها في نفوس آمنت بها وبرت في إيمانها .

عقيدة ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ « الإيمان بالله واليوم الآخر » .

بقدر ما حطمت من أصنام وأزالت من أوثان ، وأذابت من شرك - ظاهر

وخفي – مكنت للحرية الإنسانية في ظل مساواة فطرية مهذبة منشؤها أن الناس جميعا منتمون إلى أصل واحد فلا معنى للتفاضل بأصل أو نسب ، مخلوقون لخالق واحد ، الجميع أمامه سواء ، وهو ربهم وهم عباده ، أقربهم إليه أبرهم بخلقه وأخلصهم لطاعته .

هذه العقيدة الفطرية مزجت بأول نداء فيها « لا إله إلا الله » بين بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وعثمان القرشي ، مع محمد الرسول النبي في إيثار وحب وألفة وتعاون .

مزجت بين أمم متنافرة ، وشعوب متقاتلة ، وأجناس مختلفة ، ذكرتهم بأصلهم الواحد ، وأيقظت فطرتهم فآمنوا بالله الواحد .

فلم تكن الحرية والمساواة عند هذه العقيدة دعوى كاذبة تفرق بين جنس وجنس أو لون ولون ، بل كانت نتيجة لعقيدة تحملها القلوب وتفتديها النفوس ، فهي نابعة من ضمائر الناس لا مفروضة عليهم .

فإن أغرى ابن عمرو جاه والده الأمير ، فضرب فردا من أفراد الشعب – في مصر – عملت هذه العقيدة عملها في نفس أمير المؤمنين في المدينة ، وألقى على الدنيا كلمة وعاها التاريخ ودوت في سمع الزمان : « يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟

وإن تخاصم يهودي مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مثل الأمير والخصم أمام قاضيه .

فإذا نسي القاضي وكنى أمير المؤمنين بأبي الحسن غضب علي وهو المكرم وعد هذا تفضيلا في موطن القضاء ، ولام قاضيه إذ لم يسوّ بينه وبين خصمه اليهودي !

لم تعرف هذه العقيدة قط تفرقة ، فما حابت ولا جارت ولا ظلمت ولا استبدت ، وهذا نداؤها دائما باسم الإيمان : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ

بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة النساء : ١٣٥] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٨] .

لهذا نرى الرسول ﷺ وهو يقيم حدا على شريفة سرقت . يأتيه حبه أسامة ليستشفع في الحد ، فيأبى الرسول عليه الصلاة والسلام ويقول غاضبا : « أتشفع في حد من حدود الله ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

وتأمل الرسول ﷺ ، وهو ينصف الناس من نفسه ، ويعرض نفسه على رعيته : « أيها الناس ألا من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ! ألا من كنت أخذت منه مالا فهذا مالي فليأخذ منه ! ولا يخشى الشحناء من قبلي فإنها ليست من شأني ، ألا وإن أحبكم إليّ من كان له حق فأخذه ، أو حللني منه فلقيت ربي وأنا طيب النفس » .

الحرية ، المساواة ، العدالة ، الرخاء . هذه المعاني عند القوم أصيلة في عقيدة ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ .

وسنرى مدى الأثر الذي تركته هذه العقيدة في التطبيق العملي في مجتمع صدق في حملها ، وأخلص في تقبلها ، وأوفى بعهدها ، في الفصول المقبلة إن شاء الله .

ومجمل الأمر أن عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر تحفظ إنسانية الإنسان وترعاه ، فتطيب بسعيه الدنيا ويمضي بارا راشدا حتى يلقى الله ، فيلقى جزاء عمله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨١] .

وأود أن يكون معلوما أن هذه العقيدة كما ذكرت ليست نظريات مجردة أو فلسفات منعزلة عن واقع الحياة ، بل هي كما قلنا الحياة نفسها ممثلة في اتساق الإنسان مع هذا الكون وعدم نفوره منه .

هي الحياة الندية بيقظة الضمير وخشية الخالق الباسمة لروضة الحق وجنة العدل المؤملة في ساعة الشدة ولحظة العسر ، المتواضعة السخية مع يسر النعمة ونعمة اليسر .

الحياة الصابرة الشاكرة الصادقة العادلة البارة المتعاونة المتحركة في اتجاه ثابت مع الحق ، تجود بالنفس ولا تحيد ، وتشرب الكأس ولا تميد . الحياة التي تمتد ولا تنقطع وتتصل ولا تنفصل ، ويجمع بين مراحلها الكلم الطيب وصالح العمل .

ولكي تقيم هذه العقيدة نفسها في واقع حياة الناس تراها قائمة في برنامج عملي منظم يحقق أمرها بصورة فطرية جادة ، وهذه فرائض العبادات في الإسلام ومن مميزات هذه الفرائض :

أن كل واحدة منها متشابكة مع الأخرى ناهضة بأعبائها ، تتحمل الغاية التي تجتمع عليها الفرائض جميعا .

وهي في تحملها كأنما شرعت وحدها لتقوم بالغاية مع أنها لا تستغني عن أخواتها . ولا يسلم الإسلام ويحقق أغراضه إلا بفرائضه جميعا .

جزئيات مكتملة لحقيقة كاملة ، تحمل كل منها حقيقة الكل ، وهي تطلبها ولا ترضى الحياة بدونها ، مع أن لكل منها شخصيتها الفذة ، وحياتها الهادفة وحكمتها الرشيدة .

لكنها مع هذا تأبى الحياة في غيبة أخواتها ، وتأبى بما فيها من سر الحياة إلا أن يتلاحق أخواتها إن هي حلت في قلب عبد تطوعت حياته بطهرها واشتغلت نفسه بحبها والنهوض بأعبائها .

وتعجب حين تتأملها فتراها في امتزاجها وتكاملها تبعث الحياة ، وتنشر الضياء وترد عن النفس غوائل الهوى ، وتحوط القلب بسياج اليقين ، فتدرك من أمرها أنها إيجابية المفعول ، فيها حياة الدوام ودوام الحياة .

وهي تعمل دائما بصورة طبيعية هادئة لا يعتري أثرها فناء أو ذبول فإن تعرض الجسد للفناء انبعثت بأثرها مع الروح فمدت على الصراط نورا .

وهي كما قلنا : هادفة .

هدفها أولا الإنسان ، تمده بتربيتها وطهرها ورعايتها تقوية لعزيمته وتربية لإرادته وطهرا لفؤاده ، ونقاء لسريرته ، وتهذيبا لسلوكه .

تعطيه لتأخذ منه وفاء لربه وبرا بخلقه ، وما تأخذه منه عائد إليه في رضا الخالق وحب المخلوق .

والنتيجة لما أعطت وأخذت وردت « سعادة الإنسان » بوصله بمصدر الخير وإعداده ليكون خليفة بر ورحمة عن سيده الرحمن الرحيم ، ولينتفي من سلوكه ظلام السعي وظلم الفطرة ، لأن سيده حرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرّما : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٣] .

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن هذه الفرائض معاونة من الله لنا على النهوض بأعباء الرسالة ، رسالة الاستخلاف في الأرض .

وهي تتخلل زماننا ، وتزكي مالنا ، وتوحد جمعنا ، تشيع الطهر في النفس وتفرض النظافة في الظاهر والباطن .

هذه الفرائض تعيننا على الظفر في الامتحان ، وتعودنا الإجابة الصحيحة عن كل مادة ترد ، أو ابتلاء يعرض .

فتحفظ النفس ظافرة بمعانيها ، فلا تحطمها الحوادث ولا تهدمها الشهوات ،

وذلك بما تقيم في نفوسنا من حصانة ترد السهام العارضة التي جاءت لترديها ، فحولت بفعلها إلى معان تصونها وتحميها .

الفرائض العملية تعيننا على إبراز خصائصنا الإنسانية من إرادة صادقة وعزيمة بارة راشدة ، تحول البلاء إلى مناعة الصبر ، وتخضع النعماء لمنطق الشكر .

تعيننا على التعاون والإيثار والحب ، كما تعودنا الإخلاص والوفاء والصبر ، وتغرس في نفوسنا روح الوفاء للحق والمحافظة على العهد ، والعدل في الرضا ، والغضب .

تعيننا على النظافة والنظام والطهر، تعيننا على التضحية والبذل ، تعيننا على أن نكون جنود رسالة وغاية لا عبيد هوى وشهوة ، تعيننا على الحياء والعفة ، كما تطبعنا على الشهامة والنجدة .

وهي بعد مفروضة علينا ، ليعلم مدى حرص الإسلام على إشاعة الخير فينا وبذله من أنفسنا .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾

[سورة العنكبوت : ٤٥] .

(٢) الصلاة

منهج يومي

انظر كيف يبدأ المؤمن يومه ؟ بل كيف يودع أمسه ويستقبل غده ؟

فريضة الصلاة : تمسك بزمام اليوم في أوله وآخره ، وهي التي تودع الأمس وتستقبل الغد . وهي مقيدة الزمان ، فسيحة المكان « فأيما رجلٍ أدركته الصلاة فليصل » . « وجُعِلَت لي الأرض مسجدًا وطهورًا » .

وحكمة قيد الزمن : أي توقيته فيما نحن بصدده هي حكمة تقييد الإنسان بالفضائل والأخلاق في سعيه وعمله .

والزمان أمر قائم معه أينما حل ، والمكان يبرحه ويتركه إذا حل أو ارتحل فلا ترتبط العبادة بالمكان ذاته وإن ارتبطت بطهره .

وتلك خصيصة الإسلام في عبادته ، وهذا عطاء الله الخاص لمحمد نبيه .

الدنيا تنتظر الشمس لتنعم بضوئها وإشراقها ، وتنظر المؤمن وهو يخرج من محراب ربه مشرقًا بفضائله وأخلاقه .

ذاك الكوكب تنجذب الدنيا إليه ، وهذا كوكب تحيا به وتتوقف طمأنينتها عليه .

ففي هدأة السحر وما زال بساط الليل ممتدًا وثوبه مسدولًا – لم يرفع ولم يقض – يظهر نجم متألق ، طليعة جيش من الشعاع زاحف ، ودلالة فيض من النور ممتد يُؤْذِنُ بساط الليل بانطواء . يؤذن معه الفجر فيسعد الكون بالصحو والضياء ، فيلتقي صدق النداء بصدق الضياء .

أولهما : يسبح الله بصوت مسموع . **والآخر** : صامت وفي صمته آية وعبادة وخشوع .

في هذه اللحظة العجيبة الفريدة يتيقظ المؤمن ، فيشهد الفجر وهو يطوي ظلام الليل ، ويسمع الصوت وهو يفضح ظلمة الشرك وظلام الإفك بكلمات صادقة تعطر القلب وتأسر العقل .

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الصلاة خير من النوم ، الصلاة خير من النوم ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

يتردد هذا الصوت الذي يبدد ظلام النفس مع طلائع الفجر التي تبدد ظلام الحس فيلتقي النوران : نور الفجر ونور الوحي .

ذاك ترى انعكاسه على الربى والصخور ، وهذا يمضي ساريًا نقيًّا فيفيض على القلوب نورًا .

الزمان هنا خاشع حفي ، والمكان ببسمة الضياء وروعة النداء عطر ندي .

خمس صلوات تتخلل يوم الإنسان .

الأولى : توقظه

والآخرة : تقدمه للنوم وتحفظه .

وفترة بين اليقظة والنوم تأتي فرائض ثلاث ، تطهر وتذكر ، تملأ النفس بالعزم والثقة وتحوطها بشرف القصد وبر اليقين .

وهي تقدم الجسد للطهر ، وتغمر القلب بطمأنينة الذكر .

وفترة ما بين النوم واليقظة : الجسد نائم والقلب يقظان يترقب ساعة السحر فتنشط له الأعضاء وقد التقى بجند السماء ، وتلك أولى الفرائض بداية المنهج اليومي للمؤمن تأتيه الملائكة وفودا ، لتشهد قرآن الفجر : ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [سورة الإسراء : ٧٨] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويتجمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم – وهو أعلم بهم – كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » [1] .

الفجر كلمة حلوة ، ونغمة فريدة .

نور هادئ ، وخشوع أخاذ .

خشوع كون مطرق يحيي بإطراقته موكب الإيمان اليقظ ، على جبينه شارة الخضوع ، وفي إطراقته آية اليقين ورمز الخشوع .

ترى فيه حنو الأم وهي تستقبل وليدها الحبيب تشم منه رائحة العطر المسكوب على الموكب المتوضئ ذي الثوب الطهور .

إيه يا جند السحر ! يا من جمعكم تكبير الله ووحدتكم آية القدر !

---

(١) رواه البخاري .

لو أدرك الناس ما أنتم فيه من لذة الحياة وما هم عليه من طمس البصر .

لهاجت إذن عواطفهم ، وقويت أواصرهم ، ونامت نوازعهم ، وطاب الأثر .. يا جند السحر ، طاب سعيكم ودام شرابكم عذبًا : « فلو أدرك الناس ما في العتمة والفجر لأتوهما ولو حبوا » .

عجبت لمن فقد الإيمان كيف يسعد ؟ بل عجبت لمن نام عن الفجر كيف يرزق ؟

الفجر بداية المنهج اليومي للمؤمن الذي وضع جنبه باسم ربه ، فتذكر بذلك الموت ودعاه فيما دعا : « أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك إن أمسكت نفسي إليك فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما حفظت به عبادك الصالحين .

ورفع جنبه باسم ربه ، فتذكر حين ذاك النشور ، الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا إله إلا هو وإليه النشور » .

إن الجريمة المبيتة في نفس صاحبها لا يمكن ضبطها أو معرفتها إلا بعد وقوعها وهذا لا يمنع الجريمة ولا يخفف منها بل يزيد من شأنها مهما كانت صرامة القانون ويقظة القائمين عليه ، إذ التخفي أمر ممكن دائمًا .

وإذا كان أمر الجريمة في نفس الفرد مرتبطًا بمدى يقظة رجل الأمن أو غفلته فأبشر بانتشارها وكثرة وقوعها .

لكن هذا الضابط « ضابط يقظة الضمير » . الملازم لصاحبه الذي يوقظه لنداء السحر .

يبطش بالجريمة المبيتة ويئدها قبل أن تولد أو يسمع صوتها يطرد من النفس دائمًا نية السوء ، ويحطم منها نوازع الهوى والشر

كيف لا وهي تؤمن أن الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى ، وتؤمن أن نجاتها في أن تحيا وتلقى الله بقلب سليم .

تأمل الفريضة الأولى في المنهج اليومي للمؤمن تر أنها أيقظته ، فأيقظت فيه داعي الخير ، فاستجاب طائعًا لأمر ربه ، وانصرف راضيًا عن نهيه .

وأعجب ما في الفريضة الأولى أن تظل مشرقة في النفس تنام على لذة انتظارها وتسعى ناعمة بسر قيامها .

هي كنز مدخر ، يفيض على النفس غنى ويفضي إليها بسر القدر .

وماذا بعد غنى النفس من غنى ؟

وماذا بعد معرفة الله : من نعمة ترجى أو خير ينتظر ؟

الغنى غنى النفس والله يجزي من شكر .

من قام لله خاشعًا وناداه في السحر ، هاتفًا بفضله قائمًا بذكره ناعمًا بقربه فاهمًا لأمره كل شيء مستطر .

صلاة الفجر بداية المنهج اليومي للمؤمن ثم ماذا ؟

ثم يمضي في سعيه ، يمشي في الأرض يبتغي من فضل الله ، مزودًا بشحنة الإضاءة التي تجعل ذكره لله لا ينقطع في أثناء سعيه وعمله ، فإن أجاد ذكر أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأنه يحب من ابن آدم إذا عمل عملا أن يتقنه ، فهو يحسن لأن في الإحسان رضا الله ، فإن فاته أجر المخلوق لم يفته رضا الخالق .

شحنة الإضاءة التي زودته بها الفريضة الأولى تكشف له في كل ما يعرض عن الوجه الأكمل والجانب الأقوم .

فإن هو اؤتمن على مال أو عرض حفظ المال وستر العرض .

وإن تاجر أو شارك في تجارة رعى الأمانة وحفظ العهد .

وإن تعرضت له مفاتن الحياة من شهوة تغريه ذكر الله فعف ، أو مال يطغيه أشرق النداء في نفسه : « الله أكبر » . فماد الهوى ولم يبق لشهوة المال في نفسه شأن يذكر . وإن تولى رعاية أمر – وكلنا راع – أحسن الرعاية ، فالله رقيب يستوى لديه ما ظهر أو استتر . يرى للناس ما يراه لنفسه ويحب لهم ما يحب ، لا يتطلع إلى ما في أيديهم من عرض زائل ، بل ينظر إلى ما هم عليه من دين يقتدى به أو خلق مدخر .

لا يعرف الظلم إلى نفسه سبيلًا ، إذ الظلم من ظلمات النفس .

والنفس وقد استجابت لنداء الله مشرقة طيبة الأثر .

وهكذا تأتى الفريضة الأولى في المنهج اليومي إلا أن تزود صاحبها بخير زاد ، وأن تحصنه من عبث الشياطين ، فلا يكون عبد هوى ولا يخضع لسفاهة الطين .

ولكن هل يكتفي بتلك الفريضة الأولى في المعركة الصاخبة والسوق المنصوبة . هل يترك للأتربة المتصاعدة تلتصق بالجسد في العمل الدائب والسعي المستمر ، فتملأ النفس كآبة وملالا ؟ ، أم هل يترك للدنيا بما احتوت من نعماء وضراء وفتنة وبلاء أن تعبث بالقلب فتنسيه ما هو مقبل عليه من يوم حساب وساعة حشر ؟ لا ، لا يكاد النهار يرتفع ، ولا تكاد المعركة الصاخبة يسمع صوتها ، ويرتفع شظاها حتى تسمع الصوت مرة أخرى ، صوت المؤذن لصلاة الظهر : الله أكبر ، الله أكبر، فيقبل المؤمن إلى وضوئه يغسل عن جسده ما التصق به من تراب ، ويدخل إلى صلاة يطهر بها النفس بعد طهارة الحس .

وهكذا تأتى كل فريضة في المنهج اليومي للمؤمن إلا أن تجمع بين الطهارتين فلا تقبل إحداهما دون الأخرى : طهارة النفس بإقامة الصلاة ، وطهارة الحس بتناول الوضوء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ

عَلَيْكُم مِّن حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٦] تلك آية جمعت الطهارتين معًا ، الوضوء والصلاة .

والإنسان قد يفقد الطهر الحقيقي للجسد بفقدان سببه ، وهو الماء ، لكنه لا يفقد أبدًا الطهر المعنوي الذي يتم إيحاء للنفس وقياما بالنية والقصد في « التيمم » .

فيقبل المؤمن على الصلاة وقد حملت طهارة المعنى ، طهارة الحس ، في حالة تغيب مادته أو تعسرها .

وهكذا تسري روح التعاون في عبادة المؤمن سريان العصارة في أوراق الشجر ، يشد بعضها بعضًا ويمسك بعضها بزمام بعض ، مهما تعددت الفروع وتشكلت الأوراق . تنتهي إلى أصل واحد وتستقى من جذع واحد . إذ هي شجرة واحدة ، إن جاء ريها عن طريق الأصل مدت به الأعضاء ، وإن كان تنفسها عن طريق الفرع والورق كان تنفسًا للأصل والأجزاء .

والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة : ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٤] .

لا يكاد النهار ينتصف حتى يدعى الناس إلى الفريضة الثانية بنداء يحمل في طياته إعلانا عاما عن القيم التي يقبل الشخص من أجلها ، وهذه القيم لو تأملها الإنسان لوجد أنها ميزان نزيه لإقامة العدل ورعاية الحق ، إذ ليس بعد التجرد لله وابتغاء مرضاته باب آخر يمكن أن يقف الناس عنده ، فيجدوا أنفسهم على طهارة النفس ورحابة الود والحب الصادق للحق والعدل : الله أكبر ، الله أكبر .

نداء يدعى به الناس للصلاة يتكرر في اليوم الواحد مرات ومرات وهو يحمل في طياته الدعوة إلى القيم الإنسانية حتى لا يشغل الناس عنها فلا يتيهوا في الظلمات ، ظلمات البعد عن الغاية والقصل عن السبيل .

وكأني بهذا النداء الدائم يبقى على الإنسان فهو يحدد غايته ويحفظ السلام إذ يرعى إنسانية الإنسان .

وإنني أقطع موقنا أن هذا النداء المتكرر هو الوثيقة الصادقة لحقوق الإنسان وحرية الإنسان : « ففيه المساواة بين العباد جميعًا بلا تفرقة ، إذ هو باسم الله خالقهم جميعًا » « الله أكبر » .

ينادى به لصلاة تتحطم فيها فوارق الجنس واللون والجاه والغنى والحسب فالصف الأول لمن سبق ، لا تفرقة فيه أو في غيره بين فقير ضعيف وعظيم ذي حسب .

والإمامة تنعقد لمن يكون رمزًا لهذه المثل حافظًا لها ، مدركًا لحدودها قائمًا بها أيا كان جنسه ولونه وحسبه ونسبه .

فالنظر دائمًا للقيم في ذاتها إذ هي السبيل الوحيد لسعادة الإنسان وراحته .

الفريضة الثانية كالفريضة الأولى يدعى لها ولأخواتها بنداء موحد ، فيقبل المؤمن إلى وضوئه الذي يتناول الأعضاء العاملة في الإنسان التي يجب أن تتسم دائمًا بسمة الطهر ، وهي التي يتعهدها الوضوء ويجعل طهرها ونظافتها باب الدخول في ضيافة الله والوقوف بين يديه .

هنا تجد الصحة العامة موفورة بلا تكاليف ، والوقاية قائمة لأن المؤمن حريص على حفظ الماء ورعايته لأنه أمين على نفسه وطهارته حفي بصلاته وعبادته .

فانظر كم قدمت العبادة الواحدة للإنسان من رعاية في جسده وصحته فضلا على مقومات إنسانيته ورعاية حقوقه .

وأبادر فأسأل نفسي : إذا كانت الفريضة الواحدة تقدم كل ذلك فما رأيك فيمن يؤديها جميعًا وهو ليس كذلك ؟

أقول : أن التدين الكذوب لا ينتج أبدًا ما ذكرنا من فضائل وما أشرنا إليه من أخلاق ونحن حين تكلمنا عن « الإيمان بالله واليوم الآخر » لم نرد قط الإيمان الموروث الذي يحرص الإنسان معه على دوابه وأنعامه أكثر مما يحرص على إيمانه ، لم نقصد الإيمان المظلم المعتم الذي يشتري به الإنسان عرضًا زائلا ودنيا فانية .

لم نقصد إيمان الخداع والكذب والنفاق الذي صورته إحدى سور القرآن الكريم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٨ - ١٠] .

هذا إيمان دعي لا نقصده ولا نطلب له من أثر ، وإن قام بصاحبه في أول صف والتقى مع أقرانه في جوف السحر !

وإنما نقصد الإيمان المستبصر المستنير الذي يحقق أول ما يحقق مراقبة الله وخشيته ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ١٩] .

وحين نتحدث عن الصلاة .

لا نريد صلاة البلادة والعجز .

صلاة الآلة الجسدية التي تحكي حركات الجسم وتقلد صورة العبادة .

صلاة القلوب المريضة والنفوس العليلة .

وإنما نقصد صلاة القلوب الحية والنفوس اليقظة .

فشتان ما بين صورة الشجرة المصنوعة التي لا تلبث أن تكشف الشمس عن زورها وتلقي بطلائها وتظهر الباطن على حقيقته جافا ميتًا ليس بينه وبين الحياة سبب .

وبين الشجرة ذات الأصل الثابت والفروع الممتدة النامية التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

شتان بين تكلف الصنعة وعمل الفطرة ، وإن تشابه الشكل وتشاكل اللون فما بينهما من فرق كما بين الحياة والموت !

إن الخضرة الزائفة قد يخدعك مظهرها ثم يفجؤك مخبرها فتدرك أنها « ثوب رياء ليس وراءها ثمر يرجى أو خير ينتظر » .

فرق ما بين شجر وشجر ، وشتان ما بين صلاة وصلاة .

وقبل أن تسأل عن الصلاة . سل عن مقدار الثقة في الله ، لتعرف مدى اتصالها بأسباب الحياة فهي إن لم تنبع عن معرفة لله صادقة فلن تفيد في سلوك أو تنفع إذا وقعت الواقعة .

وهنا أستطيع أن أقطع بأمر أساء إلى الإسلام وأخر مده : هو كثرة الأدعياء الذين تعلقوا به ، وعاشوا على حسابه ، كما تعيش الطفيليات الخبيثة على الأجسام الحية .

أو قل ورثوه فتساوى لديهم وما يرثون من عرض الحياة ، لا والله بل كانوا أحرص على عرض الحياة منه حين فشت فيهم الصفات التي تخالفه وتناقضه !

وهذه الحقيقة حولت أنظار بعض العالم عنه إذ تأملوا أمر المتعلقين به ورأوا ما هم عليه من صفات لا تؤهل أصحابها لرسالة عالمية أو سلوك إنساني .

فانصرفوا عنها وهم في أشد الحاجة إليها .

وهذا ظلم مزدوج للإسلام العظيم .

ظلم بين أهله إذ لم يحملوه بل حُمِلُوا عليه .

وظلم له بين العالمين إذ ظنوه في خلق الأدعياء الذين انتسبوا إليه ولم يتعرفوا عليه من حيث حقيقته وأصالة منهجه وطهر معدنه .

وهذه حقيقة نقررها لننصف الإسلام أولا وآخرًا .

لأنه ليس ملكًا لأمة دون أمة أو شعب دون شعب .

ليس ضيعة تشترى أو دولة تغتصب .

إنه هدية الخالق للمخلوق ، وصلة السماء بالأرض ، ومنهج السلوك الإنساني النزيه ، إنه الحقيقة الكونية التي تضم ماضي الإنسانية إلى حاضرها ، وتربط حاضرها بمستقبلها ، فتمضي الأجيال على بصيرة من أمرها ، وأمامها عبرة الماضي وسنة الكون محفوظة في كتاب خالد مجيد : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ

مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت : ٤٢] .

وهذا ما يجعلنا نقرر مطمئنين : أن هذا الدين دين إنساني خالد ، إذ هو يحمل الخصائص الباقية التي لم تشوه بأيدي البشر ، ولم تتبدل بأهواء الناس وأننا حين نتحدث عن هذه الخصائص نعني بنتائجها كل من تيسر له أن يجرب ذلك عن الإسلام ، وأن يأخذ نفسه به ليقطع معنا أنه دين إنساني عام .

ليس مقصورًا على أمة أو فرد .

وليس دينًا لطبقة دون طبقة ، أو شعب دون شعب .

وأن الحرية المكفولة في تعاليمه تجعل المساواة بين الناس أمرًا طبيعيًا ، والإخاء بينهم أمرًا حتميًا .

فإن لم تسعهم أخوة الإيمان وهي أرحب من الكون وسعتهم أخوة الإنسانية إن هم نزعوا إلى الأصل والدم .

والإسلام يقرن الأخوة الإنسانية بأخوة الإيمان في آيات متتابعة في سورة واحدة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [سورة الحجرات : ١٣] بعد قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [سورة الحجرات : ١٠] .

لا مكان للتعصب هنا ، ولا مجال للتفرقة ، كل ما يريده الإسلام أن يتيح الفرصة لكل فرد أن يرد الماء حين يرد ، فلا يجد من يصده عن الري أو يصرفه عن المورد ، ومن هنا كانت فريضة « الجهاد » في الإسلام فريضة دفاع مشروع عن فرص الحياة التي يجب أن تتاح للجميع .

ولذا كانت الأوامر التي تصدر للقواد في ظل الإسلام :

لا تقتلوا طفلا ، لا تقتلوا امرأة ، لا تقتلوا شيخًا فانيًا ، لا تتعرضوا لمتعبد في صومعته لا تقطعوا شجرًا : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

سورة البقرة ٩ ١ .

لأنها فريضة إصلاح وتهذيب لا فريضة بطش وغلبة : ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [سورة الأنفال : ٦١] .

وهذا النداء الإنساني للصلاة أكبر دليل على صدق ما نقول إذ لم ندع فيه باسم شخص أو زمان أو مكان ، وإنما باسم الله خالقنا جميعًا .

كما أننا لم ندع إلى بيت منسوب إلى الأرض التي أنشيء فيها ، بل هو منسوب إلى الله الذي أذن في بيوت أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، كما أن البيت الذي ندعي إليه لا تقرر فيه مصلحة خاصة لفرد أو أفراد ، بل تتردد فيه المباديء الإنسانية العامة التي تكفل حق جميع الأفراد وهو بيت مفتوح لا يصدك عنه صاد أو يمنعك دونه مانع .

تدخله إن شئت فلا يقال لك من أنت ؟ ومن أين ؟ وماذا تريد ؟

لأن ما يقال فيه إنساني الفطرة لا تغلق دونه الأبواب ولا تخفيه الحجب ولم يتوجس المسلمون قط من أي فرد دخل إلى المسجد ، ووقف في الصف لأنهم في اجتماعهم للصلاة وترديدهم لآيات الله يحبون أن تقف الإنسانية جميعها معهم ، وهم يشغلون بها ويعيشون لراحتها ويعبدون الله خالقها .

لذلك حين نقرر أن هذه الفريضة تنتج كذا وكذا إنما نقصد أن نقدم هذا لكل فرد سواء أتيح له أن يجرب فيؤمن بصدق ذلك أو لم يتح له وغاية الأمر أن يجرب ذلك بنفسه ، وألا يتخذ عمل إنسان ما حجة على الإسلام . اللهم إلا عمل رسوله الكريم ، وهذا ما أردت أن أشير إليه وأن أتحدث عنه لكي تستقيم لنا حرية الحكم النزيه الناشيء عن التجربة الشخصية لا المأخوذ من عمل الغير الذي أساء أو كذب في الانتساب .

كثيرًا ما تقدم إلى المريض دواء تأمره أن يستعمله بصورة معينة ، وأن يمتنع معه عن تناول كذا وكذا ، فيأبى المريض إلا أن يخالف الأمر ويتناول بمزاجه الخاص ما قد نهيته عنه ، فتتضاعف العلة ويزداد المرض ويشرف المريض على الهلاك .

الذنب ليس عليك أنت وقد أخلصت في النصيحة وأصبت بما قدمت ، لكن الذنب ذنب من أساء الاستعمال ، وخضع لهواه على غير معرفة أو دراية .

ما ذنب الإسلام إذا أساء الناس استعماله ، ولم يتقبلوا بإخلاص وصدق ما فيه من نصيحة ورشد .

لابد من التجربة الصادقة ، بل لابد من المعرفة الراشدة .

وأنا من الموقنين أن الناس لو تقبلوا الإسلام كما يتقبلون النظريات العلمية التي يدرسونها ثم يحكمون في حرية ونزاهة بقبولها أو رفضها أو قل : إن الإنسانية لو تجردت من هواها ولم يقف في سبيلها تجار الأديان عبدة الهوى والمال – لابد أن تصل قطعًا إلى فطرتها ، كما لابد أن تدرك أن الإسلام هو دينها الوحيد ورسالتها الخالدة .

ويومئذ سيكون حسابها مع من صَدَّهَا أو أقامها على التعصب الأعمى حسابًا عسيرًا .

وسنجد في مجال التطبيق العملي للإسلام ما يجعلنا نوقن أنه خرج فعلا خير أمة أخرجت للناس ، وأن هذه الأمة من الممكن أن توجد دائمًا في أي مكان أو زمان ، وأن الذين انصرفوا عنه مع انتسابهم إليه لم ولن يكونوا أبدًا حجة عليه .

وإذا تقرر هذا ، وجب أن نمضي فيما نحن بصدده من فريضة الصلاة ، المنهج اليومي للمؤمن .

انتصف النهار أو كاد وآن لسوق الحياة أن ينفض لحظة ليمضي الإنسان إلى ساحة الرحمن يُفضي بما لديه ثم يتزود .

يلقي بهمومه ويقدم كشف حسابه ، إن كان في السوق قد ربح قدم الشكر ليأتيه المزيد ، وإن كان قد اهتم أو خسر ألقى بهمه فأقبل الرضا القانع يحفظ النفس ويجدد الأمل وخرج من ساحة الولاء ببسمة الأمل وطمأنينة القلب وطهارة الذكر

انفض السوق لحظة ليتجدد ، وارتفع ليرتفع اللهو وينحسر الطمع ، فترة

صمت لا يسمع فيها ضجيج ولا صخب .

لأن التكبير (تكبير الآذان) يقضي على الضجيج ويرفع الصخب

هذا في يده مال فتن به وهو كبير فلج واختصم .

جاءه الصوت « الله أكبر » فصغر المال وسعى في ركاب الحق ، إذ الحق باق والمال فان وإن طال الزمن .

هذا قلبه مفعم بالألم لأن فلانا طغى عليه وفجر ، جاءه الصوت « الله أكبر » فأبقى عليه نفسه ، وأزال همه ، وطمأن قلبه ، وأخذه راضيا إلى ساحة القادر الحكم .

هذا أوجعته المصائب وكسرت نفسه جاءه الصوت « الله أكبر » فاعتدلت النفس وقوى الفؤاد ، وأقبل إلى ساحة الرحمن ، فطاب بالقضاء وما أنكر القدر ، وهكذا تنفض السوق لحظة إلى ساحة الولاء ، ليعود - وقد اتصل بالله - إلى حسن التعامل ورقة الإيثار ونعمة الأمل

أرأيت لم طلب الإنسان من زحمة السعي ؟

أرأيت لم فرضت الصلاة في وسط النهار ؟

إن المسجد قائم في الأرض ليصحح أمرها ويمنحها زادها .

ويأبى الله إلا أن يفتح لعباده في أرضه دار ضيافة يطلب إليهم أن يزوروه فيها ليعطيهم أعز عطاء ، ويجزيهم بقصدهم وإقبالهم أكرم جزاء .

إن بيوت الله في أرضه المساجد . يدخل الداخل إليها ، فلا يرد ولا يحجب إلا إن حجب نفسه بقلبه ، وانصرف عن رب البيت بقصده .

أما وقد طلب الإنسان من سعيه في منتصف النهار ليغتسل ثم يعود

وقد ألقى هموم نفسه بعد أن التقى الطهر بقلبه وحسه

فليجدد لسعي نشيطا ... وقد اتسع الرجاء وطاب الأمل

يسعى على نية العود ، العود مرة أخرى إلى ضيافة الله .

فيعزم على ألا يلم بمعصيته لأنه يخشى أن يطلع الله منه على سوء قصد أو يلقاه في ضيافته ولم يحسن السعي .

بل يعمل جادًا على أن يلقاه ما بين فترة وأخرى بوجه نضر وقلب خاشع حذر .

فانظر كيف يتم ضبط الوقت بزمام الفضائل ؟

وكيف تمضي الساعات ما بين سعي محفوف بالذكر وما بين ذكر يطيب معه السعي ؟

ثم انظر كيف تمتد الحياة في نفس المؤمن وتتسع ؟

تمتد وقد اتسع رجاؤه وطاب سعيه ، وتتسع وقد امتدت الحياة إذ هي ليست دنيا فحسب ، بل في الحق دنيا محدودة لأخرى غير محدودة .

يرى هذا بصدق وهو في ساحة الرحمن يشهد وثبات الروح وهي تطوف في عالمها الخالد في لمحة الفكر وعمل القلب .

وكأني بالجسد في رحلة الروح ، كأني به محمولًا في كنفها يدين لها ويخضع لسلطانها ولا يقوى على مخالفتها .

وهي تحمله ما بين فترة وأخرى سباقة طوافة تخترق الحدود ولا تعرف السدود ، وهذا الإعجاز في عمل الروح يعود بالتهذيب على مطالب الجسد ويؤمن الحياة بقيادة الروح .

والروح إن حكمت بفضائلها أعطت الجسد حقه في اعتدال يحفظه وحالت بينه وبين مهلكاته من طواعية الهوى وسفاهة الشهوة ومطالب اللذة ، حالت بينه وبين ما يهدمه كبنيان ، وحفظت كيانه المادي والأدبي كإنسان ، وهذا الاعتدال النزيه لا يمكن أبدًا أن يتم إلا إذا تولت الروح بفضائلها قيادة الإنسان ، وصرَّفت بوحي ربها أمره .

على أن الصلاة في صورتها الكاملة مثل رائع لما يقع من اعتدال بين أمر الروح والجسد ، فهي مع كونها نجوى قلب وتسبيح فكر وترديد ذكر ، طهارة وضوء ورياضة جسد .

على أن السعي أيضًا لمطالب الحياة المادية مع حسن القصد إحياء للجانب المادي والمعنوي في الإنسان ، إذ الجسد بنيان للروح تظهر بأثرها فيه ، والروح كيان للجسد لا يكون إلا وهي قائمة به مسيطرة عليه .

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن السعي دين والصلاة دين .

كلاهما عبادة يستقيم بهما ، ويتحقق معهما الكيان الحقيقي الكامل للإنسان ، وتلك تشهد لفطرية الإسلام وهو يقيم العدل أولا في ذات الإنسان قبل أن يطلب منه رعاية العدل مع غيره .

هو مع الجسد إن مال إليه عبد غريزة وشهوة .

ومع الروح إن غلا وأسرف يهدم بنيانها الذي خلقت معه ليخلد بها وتنعم بسعيه .

وأود هنا أن أقرر حقيقة لابد منها ، إذ لا تستقيم الحياة إلا بها :

وهي أن الدين حياة متكاملة لا يمكن أن تأخذ منه الصلاة وتقول : هذا دين ، أو السعي وتقول : ذاك دين ، أو أي جزء منفصل ثم تزعم معه أنك أخذت نفسك بالدين .

هب أن جزءا من الإنسان فصل فهل يغني هذا الجزء المنفصل من الأمر شيئًا ، أو أن الحياة التي كانت قائمة في هذا الجزء المنفصل تعدم وهو إذ غاب عن أصله وبعد عن مصدر الحياة يتحلل في التراب ؟

الجزء المنفصل لابد أن يصاب بالشلل والتلف والتعفن ولا تغنيه نسبته إلى أصله أو تعريفه به

وحياة الدين هكذا . أو هكذ دين الحياة ؟

لا يمكنك أن تفصل أي جزء من هذه الحياة المتكاملة ثم تزعم أنك على صلة به أو أنك وفي له !

قلت : إن الصلاة دين ، والسعي دين ، وكذا التعاون والجهاد ، والعدل والصدق والأمانة والعفة والشجاعة والبذل والتضحية والحب والإيثار والعلم والتواضع والزكاة والصوم والحج والمحافظة على النفس ورعاية المال وتربية الأولاد وتهذيب الأسرة وتحقيق المجتمع الصالح ، كل ذلك بعد الإيمان بالله وما يترتب عليه دين .

ولا يمكن أبدًا أن تزعم أن الدين واحدة منها وإن سميت به ، كما لا يمكن أن تفصل العبادات عن السعي والعمل أو تنفرد بالسعي والعمل دون العبادات ، فذاك هو الشلل الذي يصيب أي جزء ينفرد ، وتلك سنة الحياة المتكاملة لابد أن ينسجم الجزء مع أصله وأن يتعاون ويتحد .

والجسم الحي لابد فيه من استعمال الجوارح كلها وقيام الأجهزة بعملها لكي يستقيم الكيان الإنساني ويسلم من أسباب العجز والشلل .

ولهذا لا أستطيع أن أقول : إن الصلاة تنتج كذا إلا إذا اختبرت بسعي ولم تنفصل عن أخواتها ، ولم تكن وليدة عجز أو قعود .

فكثيرًا ما نرى الصلاة في عصرنا المادي من نصيب هؤلاء الذين انفصلوا عن سعي الحياة ، فانفصلوا بالصلاة ، فكانت في نظر الناس عجزًا مع العجز وشللا مع الشلل .

وتأملنا الحياة وقد انفصلت عن الصلاة فوجدناها عذابا وجحيمًا ، إذ تبدلت فيها القيم وانتكست المثل .

الحياة تستقيم بالصدق ، غابت الصلاة فأقبل الكذب .

الحياة تسلم بالحق والعدل ، غابت الصلاة فما قام الحق ولا روعيت الذمم ، وهكذا ذهبت الصلاة منفصلة مع العجز فعجزت ، وهجرتها الحياة ففجرت وظلمت .

والصلاة بين تاركيها ومقيميها مظلومة حيرى ، لأنها خلقت للحياة متعاونة مع الأجهزة العاملة الناهضة المتحركة فأبى عرف الحياة المادية إلا أن يجعلها من نصيب من عجزوا وقعدوا .

وهي التي رأيناها تحيا مع الشباب فتثير فيهم قوة العزم وتعصم نزعة الفكر وتحفظ شعلة اليقين .

رأيناها تحيا مع الأمة الناهضة وهي تعقد اللواء فترعاها نقية في سلمها العادل وتبقى عليها وفية في الشدة والرخاء .

رأيناها قائمة في السلم والحرب ، في الأمن والخوف ، في الصحة والمرض ، في السراء والضراء .

رأيناها وفية لرجالها تحتضنهم وقد جهدوا ، فينعمون في حجرها وما بهم من تعب أو ملال : « أرحنا بها يا بلال » .

رأيناها تنبيء عن المريض فيزار ، غاب فلان ولابد من عذر فيقبلون وعلى وجوههم إشراقة الطهر وفي قلوبهم مع الجهد نعمة الإيثار .

تجمع الأحبة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر فيزداد الحب ويصان الجوار .

رأينا الفاروق العادل يُقتَل في محرابها ، فيأبى أن يضيعها أو يشغل به الناس عنها .

رأيناها لحرمتها في حومة الوغى واستقبال العدو تقام ، رأيناها وقد شمرت الحرب عن ساقها ترعى وتصان .

رأيناها في نشوة النصر لا تنسى ، وفي ألم الهزيمة تضمد الجرح وتذهب بالأسى .

هي في البيت مشعل نور وللأسرة زاد وطهور

تلك هي الصلاة مع الحياة ولا حياة بلا صلاة .

تقوم في المنهج اليومي للمؤمن مقام الأعصاب في جسم الإنسان ، شبكة متصلة تصل النهار بالليل وتوصل الليل بالنهار ، فلا الليل لاه بإثم ولا الظلم قائم بالنهار .

إذا امتد بالإنسان السعي حفظته الصلاة إنسانًا لا الغنى يطغيه ولا يذله الفقر .

ففي محرابها لا يعرف للغني جاه ولا يقام له وزن .

وما بعد غناها للنفس غنى ، ولا بعد قيامها يعرف الفقر .

وهي كغيرها فطرية في منهج اليوم ليست دخيلة فيه أو مفروضة عليه ، بل هي ممزوجة معه امتزاج فطرة – جل من فطر – سارية فيه سريان الماء في الشجر ، فلا تقل : سعي وصلاة ، بل قل دين قائم مع الحياة .

كل شيء فيها دين ما دام مرتبطًا بالإيمان واليقين .

فمتعة الجسد – وإن كانت للتراب – تقابل في منطق الفطرة بالرضا والثواب .

أرأيت أن الإسلام دين الفطرة دين الحياة ؟

أرأيت أن الصلاة « منهج اليوم » نفحة طهر وباب نجاة ؟

ولكن لماذا يطلب من الإنسان السعي إلى الصلاة إذا كان كلاهما دينا يتقرب به إلى الله ؟

ولكي نجيب :

نود أن نسأل أيضًا :

لماذا لا نترك الإنسان دائمًا للصلاة ولا نعمل بقول الله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [سورة المائدة : ١٠] .

بديهي أن الإنسان لا يمكن أن يقيم على صلاة دائمة .

كما لا يمكن أيضًا أن تستقيم له الحياة إذا خلص للسعي ولم يقم الصلاة .

كم تستغرق الصلاة في مجموعها من زمن ؟

إذا هي استقامت واطمأنت كفاها من الساعة نصفها ، فأين باقي الزمن ؟

إن الإنسان يحتاج دائمًا إلى العون والمساعدة ليستقيم أمره بعيدًا عن الإفراط والتفريط ، فلابد إذن أن يطلب للقاء ربه وتصفية حسابه وتنقية ضميره حتى لا يفسد أو يفسد ولا يضل أو يضل إذا انحاز إلى جسده أو استجاب لغرائزه وشهواته واستسلم لمآربه ونزعاته .

لابد أن ينتظم مع الحياة ، فلابد أن تفرض الصلاة .

والحياة التي نعني الانتظام معها هي الحياة بفطرتها وخضوعها لخالقها لا الحياة العابثة الضالة المنتكسة التي تحشر الإنسان في مقبرة الهوى وتغمره بظلام الشهوة ، فهذه وليدة انحراف الفطرة .

وهي لابد أن تصطدم مع سنن الحياة وتنتهي إلى أسوأ مصير : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١١] .

الحياة بفطرتها مسلمة لربها خاضعة له .

كل شيء فيها يقوم بما خُلِقَ له وما سُخِّرَ من أجله .

يأتي بفائدته إذا وضع في موضعه ولم ينحرف عن قصده .

فإن أنت طلبت النار للظمأ ذهب الطالب والمطلوب .

ومن رغب في الماء فظن أنه يبلغ فاه ببسط كفه عليه هلك الراغب ولم يصل المرغوب .

هناك أمور متنافرة يقيم الانسجام بينها حسن التقدير والتدبير .

ويرفع عداءها إذا التقت جريان الأمر على سنة الكون ومنطق الفطرة .

فالماء والنار عدوان إذا التقيا مباشرة أفسد أحدهما الآخر وذهب بفائدته ، وإن حيل بينهما بحائل تعاون أحدهما مع الآخر وقدما منفعة مشتركة .

اعزل الماء عن النار بإناء تصلح النار ما حمل الإناء مع حسن الرعاية ووضع الأمر في موضعه من غير إسراف أو تقتير .

وإن أنت أعملت الفكر في شرائع الدين وجدت أنها تقيم الانسجام أولا في نفس الفرد ثم تخرج به إلى الجماعة والأمة .

ولو عاش الإنسان بلا دين لقتل نفسه بنفسه ، وحطم بعضه ببعض إذ يختلط ماؤه بناره في غير حائل يصلح فينتهي اختلاط الماء بالنار إلى الدمار والبوار !

والإنسان مملكة قائمة بذاتها فيها من كل شيء شيء فلابد أن تنظم بدين فطري سليم يدرك أولا طبيعة الإنسان ، ثم يقيم الانسجام في داخل هذه الطبيعة بعدل واعتدال .

ولا يمكن أي أحد أن يقدر على ذلك إلا من خلق الإنسان وعلمه البيان .

من أقام الانسجام والتعاون في هذا الكون العظيم هو الذي يقيم الانسجام في طبيعة الإنسان « وقد كان » فهذا دينه يشهد له بإتمام النعمة وكمال الخلق .

وإذا تأملت آيات الله التي بدئت بقوله : ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾

[سورة الروم : ١٧ ، ١٨] .

ترى أن آيات دالة على عظمة الكون وانسجام الخلق ، خلق الرحمن . سيقت بعد التسبيح والتحميد والعبادة التي تقيم الانسجام في مملكة الإنسان وليس الدين أبدًا بمعزل عن الحياة .

فأمر الشمس في ملك الرحمن كأمر الدين في مملكة الإنسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمِن آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[سورة الروم : ١٧ - ٢٧] .

وفي السورة نفسها - بعد آيتين فقط :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣٠ - ٣٢] .

وفيها أيضا : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [سورة الروم : ٤٣] .

هذه الوثيقة الرائعة من كتاب الله تشهد بأمرين :

الأول : أن الخلق جميعه مستقيم أمره برعاية خالق حكيم .

الآخر : أن الإنسان يستقيم سلوكه إن هو التقى بفطرةالدين .

نعود فنقول : لابد أن يتسق الإنسان مع الكون بسلوكه ، أعني لابد أن يقوم الدين في النفس بعمله .

وإلا قامت الفجوة بين الإنسان وسنن الكون .

فالسماء إن ألقت عليه حاصبا لم يكن في فعلها ظلم .

والأرض إن مادت به لم تكن ملومة وكان على الإنسان اللوم .

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۞ ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۞ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۞ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سورة الملك : ١٥ - ١٨] .

فإذا جاءت الصلاة بعد هذا وكانت منهجًا يوميًا يحرس اليقين في القلب ونادى المؤذن : حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، كانت صادقة فيما دعت إليه بارة فيما أعلنت عنه وكان قيامها سببًا من الأسباب التي توفر الانسجام والاعتدال في طبيعة الإنسان فيعدل بين روحه وجسده ، أي يثبت أنه إنسان لا تغلبه السفاهة فينحصر في دنيا الحيوان ولا يحيا مترهبًا يتوهم أنه ملك وهو لا يحيا كإنسان .

في العصر وقد خفت وطأة العمل وألقت الشمس ضوءًا آخر على الحياة ، ضوء الاصفرار المشوب بغبرة السفر الطويل ، تتدخل الصلاة لتمسح عن الجباه الجادة عرق الكد وتعيد نضرة الحياة ، فتأتي راحة النفس مع راحة الحس .

إذ لا يترك لنتائج الكد مهما كانت خسارة أو ربحا أن تتسلط على النفس فتشغلها بالفرح المفرط أو بالألم الحزين ، فتفصل بين استقرار النفس وأسباب الحس .

الجسد مكدود بالسعي يطلب الراحة ، فمن رحمة الله أن تأتي الصلاة فتمهد لراحة الجسد بالنظافة والطهر مع راحة النفس بصلاة العصر بعد صلاة الظهر ، فلا تختلف النفس مع الحس سلبًا وإيجابًا ، فيضطرب الكيان الإنساني بينهما ، بل تظل النفس بفعل الصلاة والعبادة موصولة بمصدر القوة والخير ، يأوى إليها وقد أعياه الجهد وأضناه الكد فلا تزيده إعياء وقد تخلف مطلوبه أو أفلت مرغوبه ، بل تمده براحتها وقد استراحت بالصلاة وتحوطه بمعرفتها وهي تدرك أن الخير بيد الله ، وقد يكون الخير فيما تكره والشر فيما تحب : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦] .

وبهذا يتم الانسجام في الكيان الإنساني ويسلم الإنسان من التناقض بين مطالب جسده وراحة نفسه .

وأولى بدوام الانسجام أن تظل الصلاة مع الدوام تمد النفس براحة اليقين ، فتجعل أسباب الحس في طاعة النفس .

ويقين النفس إذا استدام يخفف على الدوام ألم الحس .

والآلام لكليهما تكشف عن حقيقة اليقين ، كما تكشف ألسنة اللهب عن حقيقة ما في المنجم من نحاس أو ذهب .

فالصلاة على هذا تتناول جانبي الإنسان بالراحة وتجعل السلطة لأولاهما بالبقاء . وتلك عدالة لكليهما يحبها الله وترضاها السماء .

فسلطة النفس معناها انتصار الخالد في الإنسان على الفاني فيه ، أي انتصار الفضائل على الرذائل ، وانتصار المثل العليا على الشهوات الرخيصة .

وفي ظل هذا الانتصار يجد الجسد حقه ويلقى صيانته وحفظه .

الصلاة تعطي الروح السلطة وهي تحوط الجسد بالنظافة في ثلاثة : « في الثوب والجسد والمكان » .

تعطي الروح السلطة في رياضة الجسد ونظافته .

وإذا قلنا سلطة الروح فإنما نعني قيام العدل والانسجام في طبيعة الإنسان وهذا لا يتم إلا إذا سيطر على الإنسان طهر الإيمان .

مضت فرائض ثلاث من منهج المؤمن : الفجر والظهر والعصر .

وها هي ذي الشمس وقد اصفر لونها ، وانحسر شعاعها ، وانكمش مدها تُؤْذَنُ بالمغيب ، وتؤمر بالغروب .

وتتأمل الأفق فترى سوادا خافتًا يتحسس موضع الضوء الهادئ ليحل فيه كما تتحسس جيوش الباطل في خوف ووجل موضع الجيش المنتصر الظافر وقد انسحب ليعمل في موطن آخر .

ولا يستطيع هذا الظلام الخائف الوجل أن يُقْدِمَ إلا إذا أمن سهام الفارس المنتصر ، وقبل أن يمتلئ به الأفق أو يغيب ما تركت الشمس وراءها من شفق يسمع صوت المؤذن إذ المغرب قد وجب .

وكأني بصوت المؤذن حينئذ وهو يكبر الله يسترعي نظر الناس في آيات الكبير في الكون وهو : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [سورة الحديد : ٦] .

وإذا كان الله قد أفاض الضوء نهارًا لينعم الناس بالسعي والعمل فها هو ذا يبسط رداء الليل لينعم الناس بالراحة واللباس والسكن .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة القصص : ٧٣] .

هذا الدين يقينا ليس غريبًا على فطرة الإنسان وهو يربط منهج المؤمن بآيات الكون ، والليل يخلف النهار والنور يبدد الظلام ، وليس دخيلًا على الكون وهو يصوغ أمره في آيات : القريب فيها أنها تتلى ، والبعيد في أمرها أنها أثير فعال يربط الإنسان بالملإ الأعلى .

وقريبها بعيد في تربية النفس وعصمة الفكر وسلامة القلب .

وبعيدها قريب في الإحساس بالكون وسريان الفكر فيه وخشوع القلب لدلالته .

فإذا قلت : أنا مرتبط بالملإ الأعلى لا يحتاج الأمر إلى صاروخ يحملك ، فيعود بك أو لا يعود لترى من بالملإ الأعلى ثم تستيقن .

لا ، بل يكفي أن تتلى آية من كتاب الله الخالد ، يحسن القلب استقبالها ، فترى العين وقد فاضت بالدمع ، وترى الدمع الساخن يعبر في صدق عن إنسانه الغريب الذي ذكرته الآية بوطنه ، فهيجت الذكرى أشجانه وأيقظت الآية جهاز الاستقبال في نفسه .

فسمع الصوت البعيد القريب وبكى إن نسي أو أنسته الغفلة وطنه الحبيب .

إن موجات القرآن الأثيرية تعمل عملها في الكون فلا توقفها العواصف ولا تمنعها السحب ، قد تفسد فقط محطة الاستقبال في الإنسان ، لكن الإشارات والموجات لا تنقطع أبدًا ما دام الكون قائمًا وما دام ملك الله باقيًا .

إن آية من كتاب الله يحسن القلب استقبالها تربط الإنسان بالملإ الأعلى ، وتصله بالصفاء المؤنس ، وتصرفه عن وحشة الإثم وظلام المعصية وإذا كان المنهج اليومي للمؤمن يوقفه فرضًا في محراب الصلاة خمس مرات يكبر ويسبح ويقرأ ، ويسمع ما يتردد من آيات فلنسمع في ضوئه قول رسول الله ﷺ في الصلوات الخمس هذه ، وهي المنهج اليومي للمؤمن :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا »[1] .

إلا أن صلاة العشاء هي خاتمة الطهر ، يتطهر الإنسان بها ، ثم ينام مسلمًا وجهه لله مفوضًا الأمر إليه .

فإن قبضه كان على نية الخير ، وإن أطلقه استجاب طائعًا لأذان الفجر .

---

(١) متفق عليه .

منهج المؤمن إذن – في صلواته الخمس – بحر طهور ، يملأ الحياة بالنماء والرخاء .

لكن النهر لا ينصرف الناس عنه لأن الحياة لا تتم إلا به .

وهم ينصرفون عن الصلاة ويرون حياتهم قائمة بدونها .

فهل النهر المعنوي في نظرهم أقل نفعًا من النهر المادي ؟

وهل النهر المادي أمدهم بشيء مغن في قضية الأمن والسلام ، وقد انصرفوا عن النهر المعنوي ؟

قد ينساب النهر المادي على الأرض فتنبت وتخصب ، ويجني الناس نتاج الزرع والثمر . وتنظر إلى حال الناس وقد حجزوا عن أنفسهم النهر المعنوي ، فلا يغنيهم في أمنهم وسلامهم وطمأنينتهم وبرهم ووفائهم ، زرع ولا ثمر .

بل قد يؤدي حجز النهر المعنوي عن نفوسهم إلى ضياع الثمر الذي تحتكره نفوس جشعة ، أو تغالي في ثمنه قلوب خربة ، أو تجمعه وتستولي عليه أيد ظالمة تأسر به النفوس وتذل من أجله الشعوب .

ولكن النهر المعنوي إذا انساب وظفرت النفوس به . نعم الناس بالأمن مع الرخاء ، وبالسلام مع النماء ، وبالحُبِّ مع الحَبِّ ، وبالإيثار إذا نضب معين النهر المادي أو احتجب .

فإذا شبه الرسول ﷺ النهر المادي بالنهر المعنوي ، فلأن المشبه به أصل في امتداده وبقائه جمع بينهما الطهر ، طهر الأجسام وطهر القلوب والأرواح ، والصلاة البارة تجمع بين الطهرين معًا .

والإنسان ذو جانبين : جانب الروح ، وجانب الجسد .

جانب خلق للبقاء ، وجانب يعتريه الفناء .

وما مد الباقي فهو بأثره ممتد ، وما أعطى الجسد منقطع إذا الأصل فسد .

فأي النهرين أحق بالحرص عليه ؟

نهر يبقى بأثره مع الروح ويمتد ، أم نهر ترى أثره في جسد ؟

وهل يغني آخرهما عن أولهما ؟

إن صح أن يحيا إنسان بلا روح جاز أن يحيا بلا صلاة . أي بلا نهر معنوي يطهر قلبه ويهذب نفسه ويضبط سلوكه ويحيي ضميره .

قد يعظم الأثر للنهر المادي فيما تنبته الأرض من نعم وما تقدمه المادة بعمل الفكر من إنتاج .

ولكن نفوسا خربة لا تحيا بقلب ولا تسعى بضمير .

تفتك به وتحوله من نعم إلى نقم ، ومن راحة إلى شقاء .

ونحن نرى مصداق ذلك في عصرنا هذا إذ انفصلت النفس عن فضائلها فاشتكت الجوع والمسغبة .

أتخمت نفوس وجاعت ألوف ، نعمت بلاد واحترقت أكباد .

وأفلت إنتاج المادة ولم يحط بضمير .

فأوشكت الحياة أن تنتهي إلى أسوأ مصير !

ومن طبيعة النهر المعنوي أنه لا يرضى الحياة وحده بل لابد أن يستقيم عمل النهر المادي ، لأن الإنسان روح وجسد والدين الفطري من خصائصه الحق والعدل .

يقيمهما في كيان الإنسان إنصافا بين روحه وجسده ، ليكونا بالفطرة في سعيه وعمله .

وهكذا نجد العدل ينبع من الذات ولا يفرض عليها ، ونجد الحق في طبيعة النفس ليس دخيلا على فهمها وإدراكها .

ونفس تُشَيِّدُ على الحق والعدل حرية أن تصان بها الحقوق وأن تناط بها الواجبات ، وأن تنعم بسعيها الدنيا ، وتحتفي لمقدمها الآخرة

والمنهج اليومي بضوابطه الزمنية والنفسية ، واشتماله على الطهر مع قيامه في

جَمْع وجُمَع ، حري أن يصهر النفوس في بوتقة الطهر ، طهر الظاهر والباطن ، وأن يضبط السلوك الإنساني بضابط الرقابة الدائمة ، رقابة الخشية من الله ، ومعرفته والتقرب إليه .

وهو ضابط تعدم معه فكرة السوء في الخاطر ، فيطمئن الناس بأثرها في الظاهر والباطن .

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٣٢] .

° ° °

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

[سورة الحديد : ٧]

المنهج المالي :

(٣) الزكاة

إن صح أن يقال : إن الصلاة تتناول جانب النفس فإن الزكاة تتناول جانب المال .

غير أن الأمر – وإن كان محددا في الشكل – لا يمكن تحديده من حيث الحقيقة والموضوع ، لأن ما تصنعه الصلاة في النفس قد يمتد إلى المال ، بل لا يسخر في وجهه الصحيح وطريقه الفطري السليم إلا إذا استقام سلوك النفس بحسن القصد والسعي ، فما تفعله الصلاة في النفس ممتد الأثر إلى المال .

كما أن الزكاة – وإن اختصت بالمال فسخرته وطهرته – قد تمتد إلى النفس بالطمأنينة والطهر والأمن والراحة ، راحة الضمير بأداء الحق .

وأمن النفس بسلامة القصد وطمأنينة القلب بذكر الله وابتغاء مرضاته ، والطهر من الشح والبخل بعد طهر المال بالزكاة والشكر .

والمنهج المالي كغيره يقوم أول ما يقوم على هذا الاعتراف :

﴿ هُوَ الَّذِى جعَل لَكُمُ الأَرْض ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ سورة الملك

الله الخالق وهو الرازق وإليه المرجع والمصير وبنبني في النية والقصد على هذا الأساس ابتغاء مرضاة الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٤] .

ومن هنا نستطيع أن ندرك خصائص المنهج المالي في الإسلام .

وأنه منهج إنساني فطري ، وأن نقف على بواعثه ونتائجه وغايته .

المال كما يقولون : عصب الحياة ، وكتاب الله يقدمه في بعض الآيات على الأولاد دلالة تعلق النفوس به وحرصها عليه .

والسنة وما أكرمها تربط مصير الإنسان وكرامته في بعض الأحيان بحماية ماله . وتعده شهيدا إن هو قتل في سبيل حمايته والذود عنه ، « ومن قتل دون ماله فهو شهيد » .

وإذا كان المال بهذه المكانة وكان تعلق النفوس به إلى هذه الدرجة فقد وجب أن يرسخ في النفس أولا ما هو أعز وأكرم وأبقى وأدوم ، وجب أن يحيا في القلب مُصَرِّفُ المال لا المال .

وأن يقوم في النفس سلطان الإيمان ليصرف ما في اليد على حسب أمره وقانونه ، وما أجمل دعاء المؤمنين : « اللهم اجعل المال في أيدينا ولا تجعله في قلوبنا ! » .

لا قيام للمنهج المالي في الإسلام إلا إذا سبق بالإيمان بالله ، وقام عليه ، شأنه شأن الفرائض كلها ، إذ لا يمكن أن تتحقق الآثار التي يرجى قيامها بالإنفاق في غيبة الإيمان الصحيح .

هذا يتاجر بماله ، سلعته البطون الجائعة والنفوس المحتاجة ، يستغل الحاجة ، وينتهز فرصة الجوع ليقدم الدرهم باثنين مضاعفا إلى عشر !

وهذا يقدم ماله لجاه دنيوي إن تخلف فلا إنفاق .

وثالث يقدم ماله مقرونا بالمن والأذى وابتغاء السمعة والرياء .

أعطيت ، بذلت ، أخذ مني فلان وأعطيت فلانا !

تلك نماذج من العطاء المكذوب مصدره تقديس الخلق وعبادة المخلوق ، وباعثه أنانية الجشع لا وحدانية الإيمان ، ونتائجه انتصار الفاني في الإنسان على الخالد فيه ، أي انتصار الرذائل على الفضائل . وتلك فوضى البهائم ودنيا الحيوان !

وهناك أنواع من الشح وكزازة النفس الدافعة إلى تعطن المال مع استغلال الحاجة .

نماذج من هذا وذاك تظهر دائما في غيبة الإيمان وتختفي إذا النفس أيقنت بالرحمن .

المنهج المالي هنا في خدمة الإنسان بفضائله وأخلاقه وروحه وجسده لا يقسم الإنسان فيخدم جانبا منه بل يخدمه في جملته ، ويحفظه في أخلاقه وإنسانيته لا يخدمه كإنسان ويتركه كحيوان له غرائزه ومطالبه وشهواته ، بل يقوم على رعاية حقه من كل جانب مع رعاية حق الآخرين .

وإذا كان المنهج المالي يلتقي مع المنهج اليومي في الغرض والغاية فإن الإنسان وهو ملتقى المنهجين والمقصود بهما يبرهن في موقفه منهما على مدى معرفته لنفسه وثقته بربه وإيمانه بحقه مع حقوق غيره .

وبقدر الاستجابة يحكم على الإنسان .

فإذا فرقنا بين المؤمن والكافر بالصلاة ، فإننا نوقن بأن التملص من الزكاة دليل الشرك بالله !

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

[سورة فصلت : ٦ ، ٧] .

ما مهمة المال ؟ وما مصدره ؟

مهمة المال خدمة الإنسان ليعم بخصائصه في ظل الاعتدال بين مطالب

روحه وجسده ، ولئن كان المظهر الواضح لعمل المال هو الجسد ، فإن الروح تتأثر بهذا العمل كما تتأثر الشجرة النامية بتخلف الماء أو فساد التربة والهواء .

ومن ثم لا تنتظر خيرا من شجر عرضته للذبول ، فأوقفت ثمره وأخفيت أثره ، والأمر كذلك بالنسبة للإنسان : تتأثر فضائله وأخلاقه وأفكاره وهي ثمار إنسانيته ونعيم روحه ، تتأثر بما يلحق الجسد من حرمان ومتعة وصحة ومرض ، كما يتوقف امتداد الأثر إذا انهدم البنيان وفني الجسد .

ومن هنا يظهر خطر المال وما له من أثر .

ما مصدر المال ؟ وما عمل الإنسان فيه ؟

من المسلم به أن الإنسان لم يخلق المادة وإن حورها أو حولها أو أجرى عمل الفكر فيها ، الفكر الذي لم يخلقه هو الآخر بل وهب له فهو ينميه أو يعطله .

جاء الإنسان إلى الدنيا وهي تزخر بكنوزها ومكنوناتها .

جاء مزودا بوسائل الانتفاع بها والحاجة لما فيها ، وقد وجد نفسه على أرض فسيحة متنوعة ، وفيه من غريزة التطلع والاستطلاع ما يغريه بمعرفتها والكشف عن خباياها وله من ضرورات الحاجة الملحة ما يدعوه لأن يعمل ويسعى ويختبر ويجرب .

موهبة مخلوقة تحثها الحاجة ويغريها التطلع إلى الكشف والتجربة والانتفاع .

فإذا قيل في قانون الدين : الله هو الخالق .

كان كل اكتشاف للموهبة تأييدا لقانون الدين وتشييدا في مملكة الفكر أي وجود الإنسان .

وما ينتج عن هذا العمل إنما هو للإنسان نفعا وإصلاحا وهو من الله خلقا وتسخيرا :

١ – ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَاكُم

مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٢ - ٣٤] .

٢ - ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ۞ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [سورة النحل : ٨٠ ، ٨١] .

٣ - ﴿ ٱللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِىَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الجاثية : ١٢ ، ١٣] .

فإذا قيل : لابد من منهج يكون مرجعه إلى الخالق كان معناه :

أولا : تحقيق العدل بين الخلق جميعا ، لأن الله رب العالمين .

وثانيا : تزكية الفضائل في الإنسان بالاعتراف بالخالق الذي وهب الحياة ومنح العطاء .

وثالثا : رعاية الإنسان وصيانة حقه وحماية ضروراته .

وكان القصد أن يسلم الإنسان من انحراف الفكر وسوء القصد وألم المسغبة بوضع أساس ثابت لسعادة الإنسان الدائمة التي تبنى أولا على إبراز خصائصه الذاتية وفضائله النفسية وسلوكه العملي ، ولن يتم هذا وقد انحرفت الفطرة فأنكرت الخالق بالإساءة إلى المخلوق .

وما أفحشه كفرا ذاك الذي يضن الإنسان معه بما ليس له على من هو له ، إذ برهان الأذى مقترن به ودال عليه .

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۞ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [سورة فصلت . ٦ ، ٧] .

الأرض أرض الله ، والإنسان مستخلف وهو خلْق الله أيضا ، وفي منطق العباد إذا أنت سكنت دارا أو استأجرت أرضا لابد أن تدفع أجر هذه أو تلك .

ومن حق المالك أن يخرجك منهما إن أنت أسأت الاستعمال أو ماطلت في الدفع .

وأنت تحيا في أرض الله ، نعمة الحياة وهبت لك ، وأرضه بما احتوت ذللت من أجلك .

أفلا تدفع ضريبة زهيدة تقدمها لمن عجز أن يعول نفسه أو احتاج عن علة لا عن تقصير إلى ما في يد غيره ؟

وما تقدمه مردود إليك أمنا وحبا ونماء وطهرا ، فالله يأخذ منك قدرا زهيدا لأخيك ليحوطك ويفتديك ويربط بينكما برباط وثيق ، رباط التكافل والتعاطف والرحمة و« الراحمون يرحمهم الله » .

وما تقدمه أنت مستخلف عليه تصرفه بأمر مالكه « جل وعلا » .

واعجبا حين تضن فيضن عليك ! أو تبخل فينزع المال من بين يديك ! أو تسيء الظن في المزيد فتساء فيما لديك !

هذه أرض تنبت زرعها ، وتلك سماء تحتضن كواكبها ، ويد القدرة تدبر الكل وأنت تشهد .

فما رأيناك يوما خرجت في قوة لتبعث الشمس من مرقدها ، أو ترسل النور من منبعه لتبطش بالظلام في مكمنه .

ما رأيناك تفجر نهرًا أو تجري شمسا وقمرا !

ما رأيناك تحمي الزرع من عطب !

ولا حسبناك تستنقذ من الذباب ما سلب !

ما عهدناك ترد قضاء إذا وجب ، أو تعرف من أمر القدر ما احتجب !

بل رأيناك ، منعما عليك ، والفلك دائر بك ، والشمس ساطعة عليك ،

والأرض بأمر ربها مذللة لك ، والهواء بما احتوى من دقة التنظيم ينعش النبات فيحييك ، ويأخذ منه ليعطيك .

ترد ما أعطيت محولا إليه . فيعوضك بما لديه .

منفعة متبادلة في المملكتين وإلا فما قامت الحياة في الجانبين .

لو ترك تنظيم الأمر إليك ، – حاشا – لساومت فهلكت وأهلكت ، ولكن الأمر والحمد لله ليس مفوضا إليك ولا هو قائم بك أو عليك .

أنت ، من أنت ؟

سل نفسك بنفسك ما لك وما عليك :

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المُنشِئُونَ ۝ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ﴾ [سورة الواقعة : ٥٧ – ٧٤] .

الأرض أرض الله ليست أرضك وإلا فما بقيت بعدك وقد هلكت ، ولا احتوتك فأذابت منك خلايا العظم واللحم .

الأرض أرض الله وأنت تمر عليها ولا تقيم .

فلا تنازع مالكها فتضل عن الصراط المستقيم !

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

[سورة لقمان ٣٤]

إن قيل : ادفع الزكاة لتحمل عليها ، فقلت : لا . حملت عليك . وإن قيل : لمن المال ؟

فقلت : لي أنا تنكرا وشحا وبخلا .

فإذا جاء القضاء عليك وعليه فأين أنت وأين المال ؟

وإن توهمت البقاء فطمعت في المال .

فقيل: أأنت مقيم ؟

فقلت : نعم .

فماذا تفعل النعم إذا أنت ذهبت وذهبت النعم ؟.

صدق أن خير ما قيل عنك فكرمت به : « أنك مستخلف » .

وإلا فسل الواقع ينبئك عن نفسك إن أنت لم تدرك لغة التكريم وحقيقته في الاستخلاف .

سل الواقع المر ينبئك عن نفسك فيمن طوته الأرض وذهبت به السنون !

لن تجد من غير المالك تكريما ولن يكون .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة يس : ٨٢ ، ٨٣]

الإنسان مستخلف .

ذاك أصدق وصف ينطبق على الحقيقة والواقع .

ويعبر عن الصدق واليقين في أمر الإنسان .

مستخلف . حقيقة لا مراء فيها ولا جدال .

وإذا نحن تأملنا أسلوب القرآن الكريم في طلبه للإنفاق وجدناه يقدم له بما يشعر الإنسان بسيطرة الخالق على الكون ، فكل شيء مسبح بحمده وكل شيء خاضع لأمره : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ﴾ [سورة الحديد : ٦] ، ﴿ يَعْلَمُ مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [سورة التغابن : ٤] .

يقدم كل هذا تذكيرًا للإنسان ورحمة به حتى لا يجهل الحق فيضل أو يعمى عن الواقع فيزل .

اقرأ قبل طلب الإنفاق في سورة الحديد :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [سورة الحديد : ١ - ٦] .

يا لله !

أكل هذا يذكر قبل طلب الإنفاق ؟

وهل بعد هذا من رحمة مهداة أو إرشاد ينتظر ؟

ست آيات تقدم بهذه الصورة المشرقة القاطعة بين يدي الآية السابعة التالية :

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الحديد : ٧] .

لم كل هذه ؟ والإنسان في تكوينه ونموه وسيره وعمله وحله وترحاله يرى الأثر الرائع للقدرة الغالبة والأمر المسيطر ؟

يرى ذلك في نفسه ومن حوله .

في الأجيال يتبع بعضها بعضًا : جيل يتبع جيلا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

في آيات الكون وما أعظمها في نعم الله التي لا تحصى وما أجلها !

وكل شيء يدين لله بالطاعة ويشهد له بالعظمة وينبيء في تكوينه وانسجامه عن الحكمة البالغة والنور الباقي والنعمة الوافرة والعطاء الممتد .

ومع جميع الشواهد التي لا تحصى ولا يقع أمرها تحت حصر ترى الحق جل وعلا رحمة بعباده يطلب منهم رعاية أنفسهم بالإنفاق ليحيوا مع غيرهم في حب وتآلف ورحمة .

فيقدم لهذا الطلب تعريفا بنفسه وذكرا لعظمته في آياته التي تعود على الإنسان بالنفع حرصا منه على تبصرته ورعاية أمره : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٢] .

دقق النظر فيما ذكرنا من آيات ، وعش بقلبك في هذه الحقائق الناصعة لتعرف من استخلفك .

ولتدرك أن المنهج المالي قام على أسس ثابتة ، بل على حقيقة باقية خالدة .

وأن ما اقترن به من أخلاق وامتزج به من فضائل منشؤه الاتصال بين العبد وخالقه بالطاعة والعبادة .

بين الدنيا والآخرة بالسلوك والعمل .

وبين الإنسان وحقائق الكون بالتأمل والنظر .

وبين الحياة والموت باليقظة والاستعداد !

من هنا جاء المنهج المالي ممزوجا بالخلق والفضائل ، مشفوعا بالتضرع إلى الله أن يتقبل .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٩ ، ٦٠] .

وقد تعجب إذ ترى الإسلام يطلب من الإنسان الإنفاق في غير ما فرض من زكاة إذا اقتضى الأمر ذلك .

ونحن نسمي هذا كله منهجا ماليا مع أنه – وإن كان محدود المقدار في الزكاة – غير محدود فيما دعت الضرورة إليه ، وأوجبت الحاجة فرضه .

بل حدده قضاء الضرورة والوفاء بالحاجة .

غاية المنهج المالي سبيل الله وابتغاء مرضاته .

وآدابه مترتبة على غايته ، وفضائله مبنية على القصد منه .

وشرف الوسيلة من شرف الغاية ، وأدب السلوك من طهر الغرض والقصد والمنفق عليه إن كان قصدا عاما فباسم الله يتم الإنفاق ، وعلى عباده يعود النفع المشترك والفضل لله الغني الحميد .

وإن كان الإنفاق على فرد أو أفراد ممن شملتهم آية الصدقات فباسم الله يتم التصدق في غير مَنٍّ أو أذى والفضل لله رب العالمين .

وتوجيه المال بهذه الصورة إن هو إلا اعتراف طبيعي بمصدر المال وأنه مال الله وأن الإنسان وهو خليفة الله في الأرض مؤتمن عليه يصرفه بقانون ويمسكه بقانون .

وإذا كان للإنسان المستخلف بداية ونهاية فإن للمال العارض بداية ونهاية ، وقد يشهد الإنسان بنفسه مرارا بدايته ونهايته في يده .

والحديث عن المنهج المالي يسترعي النظر إلى ما آل أمر الإنسانية إليه وقد حولت هذا المنهج عن قصده وصدفته عن غايته .

المال في منهجنا وسيلة لغاية .

لكنه عند أصحاب الحضارة المادية والفلسفة المادية غاية لا وسيلة ، لأنه الحياة عندهم والحياة مادة .

المال عندهم غاية لا بأس أن تكون وسائله الحيلة والخديعة والكذب والنفاق والغدر وتسلط القوي على الضعيف .

إنسانية الإنسان تخدم حيوانيته

نحن نفهم أن الإنسان مأمور بالسعي مدفوع إليه ومعه فضائله وأخلاقه ،

معه أمله وثقته في ربه ، فهو ممتد الأمل دائم العمل لا يوقفه الربح ، ولا يقعده الحرمان وما يحصله أو لا يحصله لا يفقده أبدا شيئا من خصائصه الذاتية أعني مقوماته الإنسانية .

فلا الغنى يغير من صفاته ، ولا الحرمان ينقص من أخلاقه فهو الإنسان على كل حال .

الإنسان الذي يعرف معنى الصدق والوفاء والرحمة والعدل .

الإنسان الذي يسخر المال لصفاته ولا يسخر صفاته أبدا للمال .

ومعنى هذا أن يتوافر الأمن الناشيء عن النفس والطمأنينة المنبعثة من الفؤاد والسلام القائم بالحرص على الصفات ، والإنسانية الباقية ببقاء الإنسان لا الممزقة بناب الشهوة المتآكلة بظفر الغريزة .

نحن نفهم في ظل المنهج المالي الذي يجعل المال وسيلة لغاية ، هي سبيل الله وابتغاء مرضاته .

نفهم معنى الأخوة والتعارف والتعاون والتراحم .

نفهم معنى الإنسانية على وجهها الصحيح .

نفهم معنى السلام والأمن ، نفهم معنى الحرية والعدل والحق .

ولكننا في ظل الفلسفة المادية لا نفهم عن الإنسان شيئا إلا أنه حيوان يطلب الغنى ، ويطلب المتعة ، وهو مسخر من أجل ذلك كله ينازع عليه ، ويقاتل من أجله !

ومن هنا أستطيع أن أقطع أن أمر الاقتصاد في فلسفة المادة منحرف يتيه في الظلام ، ويعمل في الظلمة !

منحرف من حيث كونه غاية أو وسيلة لغاية قاصرة .

منحرف من حيث ضوابطه الأخلاقية .

منحرف من حيث سبل الإنفاق وما يجب أن يتوجه إليه ، بل منحرف من

حيث الاعتراف بمصدره وإدراك حقيقته من بدايته إلى نهايته .

وسبب هذا الانحراف الانفصال الواقع بين العبد وخالقه بالمعصيةُ وبين الدنيا والآخرة بالسلوك والعمل بعد القصد والاعتقاد ، إذ ليس في السلوك العملي ما ينبيء عن الاعتراف بالآخرة والتقدير لأمرها ، وبين الإنسان وحقائق الكون بالتأمل والعبرة .

إذ النتيجة الطبيعية للتأمل اليقظ ، الانتفاع والاعتراف بالخالق .

لكن التأمل عند الماديين يؤدي إلى نتيجة واحدة فقط هي المتعة المادية ، أما الجانب الآخر – وهو الأهم – جانب الاعتراف بخالق الكون الذي يترتب عليه دائما استقامة القصد والعمل وسمو النفس بمعانيها فهو ما تفقده حضارة المادة أو فلسفة الماديين .

ولذا قلنا : أن هناك انفصالا بين الإنسان وحقائق الكون ، إذ لا تقدير للذة الجسم مع فساد النفس .

والانفصال أيضا بين الحياة والموت فكل شيء في سلوك الماديين ينبيء عن أنها دنيا فحسب ، فلا إعداد ولا استعداد لشيء آخر !

ومن هنا وقع التنافس المسعور على اللذائذ والمتع .

كما أن الحياة بفعل المادة الغشوم ومنطق اللذة البليد تحولت إلى جحيم مستعر والنتيجة الحتمية وقوع الانفصال في كيان الإنسان بين مطالب الحس وطمأنينة النفس ، وإذا عدم الانسجام في الكيان الإنساني فكيف يتم في عالمه الخارجي ؟

والعالم في سلوكه صورة منعكسة لما في النفس .

فإذا فقد الأمن في مجموعة فاعلم بأن الأمن قد فقد أولا في نفوس أصحابه .

ولكن منهجا يقوم على رعاية الإنسان من كل جوانبه جدير أن يقيم الانسجام في كيان الإنسان بين روح وجسد : روح تعترف بالخالق ، وجسد يخضع لأمر الروح فيحيا في ظل عدالة السماء قويا نظيفا ينعم بمطالبه في غير إسراف يُودِي به أو تقتير يضعفه .

وتلك هي الفطرة السمحاء والسنة المطهرة .

سنة عدل بين روح وجسد ، سنة رعاية لكل جانب في الإنسان ، سنة حقوق وواجبات .

ومن هنا كان الاعتراف بالخالق في المنهج المالي محققا لقيام الانسجام في كيان الإنسان . وكان قيام الواجب المالي وتصريفه في ظل الإيمان تحقيقا للعدالة الصادقة البارة لجانبي الإنسان

وأراني أتحدث عن المال بصورة عامة مع أن الفريضة الثانية هي الزكاة فحسب ، ويقتضي الأمر أن يكون الحديث مقصورا عليها .

ولما كان الأمر لا يتعلق بالزكاة فحسب ، بل يتعلق أيضا بحل المورد وطهر الوسيلة حتى تطلب الزكاة ، فقد تحدثت أولا عن المال بصورة عامة إذ لا نضع في ميزان التقدير مرابيا وسارقا أو مختلسا ومحتالا ، لأن الفرائض العملية كلها تقوم على الأساس الثابت والأصل المستقر : الإيمان بالله القادر المقتدر .

وهؤلاء وأضرابهم قد انتفى تقدير الأصل في نفوسهم فاختفى الطهر من حياتهم ، ولا يتأتى الطهر لهؤلاء بالتصدق من مال السرقة والربا والاحتيال ، بل لابد أن تطهر نفوسهم أولا من لوثة الشرك وتحيا قلوبهم بشرف القصد فيستقيم لهم ميزان التقدير . تقديرهم لأنفسهم أولا وهم يبيعونها ببريق مفقود .

وتقديرهم لخالقهم وهم يسيئون الظن به ، فيتعجلون حظهم من الحياة ونصيبهم من الدنيا !

وتقديرهم لحقيقة ما يفتنون به وهم يتوهمون البقاء فيه أو الإبقاء عليه !

سبيل الطهر لهؤلاء : زكاة النفوس قبل زكاة المال .

ومعرفة الخالق لينتفي من أمرهم سوء الكسب وكذب التصدق على المخلوق .

إن متاهات الباطل وهي تلتوي بأصحابها وتنحدر بهم في ظلمات الهوى لا يمكن أن تضاء بسنا البرق أو نار المستوقد .

كما لا يمكن امتداد السير على نار المستوقد أو سنا البرق .

لابد من تعثر الخطى مع قيام الظلمة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [سورة النور : ٤٠] .

والنور في الإنسان ليس مشكاة تحمل على اليد ، بل هو ضياء في السمع والبصر والفؤاد ، يدرك معه حقيقة الأشياء ، ويحدد به موقفه من كل ما يعرض له : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[سورة الأنعام : ١٢٢] .

وهذا ما نطلب تحقيقه في الإنسان ولا يتم إلا بالإيمان .

فقبل أن نطلب درهمه الأعمى أو دينار الأصم نطلب إيمانه المستبصر المستنير لنرى منه النظرة البارة ، والبسمة الرقيقة المهذبة ، والكلمة الطيبة مع التصدق العف .

وهذا ما يمكن أن تطيب به نفس المتصدق عليه وتقر به عينه إذ هو تصدق خلق بار كريم : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٣] .

وبعد فمصداقا لما ذكرت تأمل حديث رسول الله ﷺ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : أي الصدقة أعظم أجرا ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا وقد كان لفلان ! » .

تأمل « أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى » . تجد الدافع الثقة فيما في يد الله التي لو عدمت ما وقع التصدق ولا قام العطاء ولا تقبل العمل ، إذ لولا الثقة في الله ما قام الغنى في النفس مهما كثر المال ، ولم يظفر القلب بالطمأنينة مهما امتلأت اليد بالدرهم والدينار .

بالثقة يتم البذل والتصدق ويتحقق قول الله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ

كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [سورة الحشر : ٩] .

إن النفس إذا أيقنت بالله عرفت مصدر الخير ، فأنفقت ولم تخش من ذي العرش إقلالا ، وإذا وثقت فيه واطمأنت إليه أبصرت أمرها فلم تر لنفسها فضلا فيما أحرزت أو أنفقت ، والفضل دائما لله الغني الحميد .

ولنا بعد هذا أن نتساءل :

كيف يفرض الإسلام الزكاة ويوجب التصدق ، مع أنه يدعو إلى العمل ويحث عليه ولا يرضى لأبنائه أن يقعدوا أبدا عن طلب الرزق وهذا وحده كاف للضرورة مغن عن المسألة مذهب للفاقة ؟

ولكي نجيب عن هذا نحب أن يكون معلوما أن الإسلام لا يرضى لأبنائه أن يقعدوا عن طلب الرزق وينتظروا من السماء أن تمطرهم ذهبا أو فضة .

فالجالس في المسجد في غير أوقات الصلاة يُسأل مَن يعولك ؟

أخي .

أخوك أعبد منك .

وفي يوم الجمعة : ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [سورة الجمعة : ٩] .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ .

[سورة الجمعة : ١٠] .

لأن الإسلام دين يمتزج بالحياة فلا يفرق بين صلاة بارة وسعي مشكور . لا تواكل ولا كسل .

والإسلام بما افترض من زكاة وما أوجب من صدقة لم يفترض في مجتمعه أنه مجتمع « متسول » ينتظر اللقمة واللقمتين والتمرة والتمرتين . بل افترض أولا أنه مجتمع عامل جاد متكافل . والإسلام فرض الزكاة وهو يقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، « وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » ، « ومن يستعف يعفه الله . ومن يستغن يغنه الله » .

والرسول ﷺ يقول فيما رواه أبو هريرة : « والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه » .

« ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس ! » .

العفة بالعمل والتعفف مع العلة والعجز ميزان الخلق الإسلامي في منهجه المالي : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٣] .

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : يا حكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

فقال حكيم : فقلت يا رسول الله : والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا .

فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيما إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه ، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئا .

فقال عمر : إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه .

فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي .

وفي رواية قلت : فوالله لا تكون يدي بعدك تحت يد من أيدي العرب .

فأنت ترى من هذا مدى التنفير من أن يكون المؤمن صاحب اليد السفلى ، كما ترى غاية الحث على التعفف وأخذ الأسباب إلى الاستغناء ولو بحمل حبل على ظهرك فتحتطب . « ومن أمسى كالا من عمل يده بات مغفورا له » .

ولكن قد يقع العجز وتمنع العلة من الكسب ، قد يموت العائل وله زغب جياع .

قد تأتي عاديات الأيام على ثمرة الكسب والعمل .

بل قد يمتد بك السعي إلى دار غير دارك وأرض ليس بها أهلك وصحبك والمالُ قد نفد وأنت تبغي الأوبة إلى الصحب والأهل .

قد ، وقد مما لا يحصيه العد من حوادث الزمن وعاديات الأيام وصروف الدهر .

فهل يترك هؤلاء للأحداث تبطش بهم ، وللعاديات تنكس رءوسهم ، ولصروف الزمن تهدم بنيانهم وكل فرد معرض لذلك أو لابد من التكافل بين أفراد المجتمع ، فلابد من فرض الزكاة ووجوب التصدق !

إننا ننشيء المستشفيات ، نملأ مخازنها بالدواء ، وساحاتها بعربات الإسعاف تتأهب لكل طارىء ، فتسرع لإسعاف الجريح وإغاثة المتألم .

هذا منطق الطبيعة وداعي الضرورة .

أفلا تفرض الزكاة لتبقى الأمة ؟

أي والله لتبقى الأمة ! إذ لا بقاء لأمة لا تماسك للبناتها ولا تعاون بين أبنائها ولا تكافل أو تراحم بين أفرادها !

ونحن أمة شبه الرسول ﷺ أمرها في توادها وتعاطفها وتراحمها بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

ولم أر أعظم ولا أقوى ولا أبر وأكرم من هذا التماسك والتعاون في طبيعة الجسد الواحد فمعلوم أن الجسد إن أصيب جزء منه تألم كله .

ليس تألما سلبيا بالدموع تذرف وبالكلمات الحزينة تنثر .

وإنما هو تألم إيجابي يظهر فيما تفعله الأعضاء من بذل ما لديها .

وما تقدمه الخلايا من إشارات وإمدادات وحراسة وترقب .

يشغل الجسد كله بالجرح المتألم ، فلا تزال الإشارات تعمل والإمدادات تتوالى والحراس يسهرون على الجرح يقدمون إليه ما يصل من عطاء مفيد حتى يندمل ويعود الجسد سليما معافى كما كان .

وهذا بالضبط حال المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم :

إن مات والد اليتيم فكلهم له أب .

وإن نزلت الفاجعة على أحدهم فإنما هي فاجعتهم جميعا .

وإن اعتدى على جزء من أجزائهم عملت الإشارات وأقبلت الإمدادات من كل مكان تحرس وتحمي وترد وتدفع حتى يظل الجسد في مجموعه معافى سليما وتبقى الأمة في مجموعها متوادة متعاطفة متعاونة متحدة متراحمة .

وتلك هي الأمة التي قال الله عنها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] .

ومن هنا ندرك لم قاتل أبو بكر مانعي الزكاة ، ساوى بينهم وبين المرتدين في حروب الردة ؟ ذلك كان حماية للأمة الإسلامية أن تنفك روابطها أو ينفرط عقدها ، وتأديبا لهؤلاء الذين غفلوا عن مصدر المال فمنعوه .

والمال كما قلنا : مال الله والعبد مستخلف فيه .

فمن منع حق الله في المال فامتنع عن الزكاة وجب أن يقاتَل عليها لأنه بذلك يفتح بابا واسعًا لقتل نفوس بريئة قد يكون منها طفله وهو لا يدري ، وقد يكون هو نفسه من حيث لا يحتسب إذ لا يعلم أحد ما يبيته القدر ، وكم من غني بات فقيرًا ، وكم من وليد رُبِّيَ يتيمًا :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [سورة النساء : ٩] .

أدرك أبو بكر ما ينتهي إليه أمر الأمة إن هو ترك هؤلاء الذين يعملون على هدم الأمة وتحطيم روابطها بمنع الزكاة ادعاء بأن المال مالهم ؛ ولما عارضه عمر وقال : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا

قال عمر : « فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق » .

ولكي ندرك هذا العمل الجاد المخلص في التزام أوامر الله وحدوده نود أن نتعرف أولا على نماذج من الأسلوب الفريد الذي طلب به القرآن الكريم أداء هذه الفريضة لندرك معه أن العلاج الذي قام به أبو بكر لابد منه ، وكما يقول العرب : « آخر الدواء الكي » .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة : ٢٦١] .

٢ - ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٥] .

٣ - ﴿ وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٥] .

٤ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

[سورة التوبة : ١١١] .

٥ - ﴿ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الحديد : ٧] .

٦ - ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ

لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المنافقون : ١٠ ، ١١]

٧ - ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ [سورة الليل : ٥ - ١١] .

٨ - ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١ - ٤] .

٩ - ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأَخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ ﴾

[سورة التوبة : ١١] .

١٠ - ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾

[سورة التوبة : ١٠٣] .

١١ - ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٠] .

١٢ - ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

[سورة التوبة : ٣٤ ، ٣٥] .

١٣ - ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

[سورة التوبة : ٦٧] .

تأمل أسلوب القرآن الكريم فيما عرضناه عليك وما لم نعرض مما فاض به القرآن الكريم في غير موضع تجد نفسك أمام الحقائق الآتية :

١ – أن الزكاة باب النعمة النامية والعطاء الممتد : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة : ٢٦١] .

٢ – أن زمام المال ليس بيدك وإنما هو بيد الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون .

٣ – أن الامتناع عن الإنفاق سبيل التهلكة : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٥] .

٤ – أن جنة الله لمن آمن به ووضع عطاءه حيث أحب : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ [سورة التوبة : ١١١] .

٥ – أن إنفاقًا بلا إيمان لا خير فيه ، وإيمانا بلا إنفاق الشرك معه : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الحديد : ٧] .

٦ – النهاية نتيجة حتمية والموت أمر لازم : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المنافقون : ١١] .

٧ – من مات لا يرجع ومن ذهب فالمال لغيره : ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴾ [سورة الليل : ١١] .

٨ – أن سعادة الناس هنا وفلاحهم مرتبطان بالإيمان والعمل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١] .

وبعدها عَدَّ لجملة من الأعمال منها : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾

[سورة المؤمنون : ٤] .

٩ – أن أخوة المؤمنين ووحدتهم مصدرها لقاؤهم على الله واعترافهم بحقه : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ ﴾ [سورة التوبة : ١١] .

١٠ – أن الممتنع عن الزكاة لم يضر غير نفسه : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٠] ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٣٥] .

١١ – أن قبض اليد عن أداء الحق دليل النفاق وعدم الثقة في الله والخروج على طاعته : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٦٧] .

تأمل بعد هذا جانبا من حديث رسول الله ﷺ مما رواه الصحاح :

١ – عن أبي أيوب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : أخبرني بعمل يدخلني الجنة : قال : « تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم » .

٢ – عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم .

٣ – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا » .

٤ – وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « يا عبد أنفق أنفق عليك » .

وقال : « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يغض ما بيده وكان عرشه على الماء بخفض ويرفع » .

٥ – عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا يا رسول الله : ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال

وارثه . قال : فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر » .

٦ – عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالًا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

وفي رواية : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » .

٧ – عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من آتاه الله مالًا فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعًا أقْرَعَ له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه – يعني شدقيه – ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٠] .

٨ – « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه عز وجل » .

٩ – عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « على كل مسلم صدقة فقالوا : يا نبي الله فمن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يجد . قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يجد . قال : فليعمل بالمعروف ، وليمسك عن الشر ، فإنها له صدقة » .

١٠ – « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » .

هذا قليل من كثير مما أفاضت به السنة الشريفة في الزكاة والصدقة والإنفاق .

أردت بما قدمت من آيات وأحاديث أن نتأمل أسلوب القرآن الفريد والسنة المطهرة لندرك معهما أن الخليفة الراشد « أبو بكر » الصديق رضي الله عنه حين قاتل مانعي الزكاة إنما كان مدفوعًا بيقين ثابت وإيمان راشد وغيرة صادقة على مقدرات الأمة وميراثها ورعاية أماناتها .

ماذا بعد أن تسمع ممن خلقك ورزقك : ﴿ إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [سورة التغابن : ١٧] .

يا لله !

ماذا يطلب العبد من بر وكرم ورحمة بعد هذا ؟

ماذا بعد أن يخاطب الله عباده بهذا الأسلوب البار الكريم ؟

والنتيجة لا تعود إليه ، أنفقوا أو لم ينفقوا ، فهو غني عن العالمين : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٢] .

لا شيء بعد هذا إلا أن يجرد الصديق حسامه لينصف الحقيقة الباقية ويرد الحق إلى نصابه : « لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة » .

والحقيقة أن المال مال الله ، والعبد مستخلف فيه .

فإذا ادعى إنسان ما ليس له وجب أن يؤخذ منه ، وإن أبى قوتل عليه !

وإذا حاد الناس عن الحقيقة وجب أن يردوا إليها ، وفي هذا حياتهم ونجاتهم .

ولقد قلت : إن الإسلام قد سلك إلى هذه الحقيقة الفطرية أبر السبل وأكرمها وهو يأخذ الزكاة من أغنياء المسلمين ليردها إلى فقرائهم ، يأخذها بلا ظلم أو استعلاء ، فباسم الله تؤخذ ، وباسم الله تعطى .

ومع أن المال مال الله ، والعباد عباده – فهو مع ذلك – يعدهم على حسن قيامهم عليه وتصرفهم فيه الأجر الجزيل في الآخرة ، بالإضافة إلى ما ينعمون به في الدنيا من أمن ورخاء وطهارة ونماء .

والزكاة مع هذا لا تؤخذ عن غير مقدرة ولا يعطاها غير محتاج .

إن ميزان العدل في الأخذ والعطاء ميزة هذه الفريضة الإلٰهية .

قد تستأجر أرضا من عبد فأنت تدفع له الأجرة ، نما الزرع أو هلك لكنك هنا في الفريضة العادلة تدفع الزكاة مع النماء .

تدفع عما أنتجت الأرض بحساب « العشر أو ربعه » .

وأنت تملك مالًا يدور في حاجتك لا يستقر ، ولا يمضي عليه حول ، هذا

مال الضرورة بالنسبة لك ، فلا شيء فيه إلا ما تقدمه عن طيب نفس ، لكن المال الذي يستقر معك حولا كاملا ليس هذا مال الضرورة بالنسبة لك ، وإنما هو مال زائد على حاجتك فلابد أن تدفع عنه الزكاة ، ربع العشر ، فأنت ترى في كل صورة من صور الزكاة أن الحق والعدل هما ميزان هذه الفريضة الفطرية البارة ، لا ظلم ولا تعسف ، بل هي عدالة الله شرعها ، ورحمته أهداها : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [سورة الطلاق : ٧] .

يمكنك بعد هذا وبعد دراسة ما ورد عن الزكاة من تنزيل وتبيين وهي تتآخى مع الفرائض الأخرى أن تدرك أن هذا بحق من الله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [سورة الشعراء : ١٩٢ ، ١٩٣] .

وأنت ترى أن الزكاة وهي تصدر عن إيمان بالله واليوم الآخر تحفظك إذ لا تفرّق بين عاجلك أو آجلك ، وتربط بينك وبين أخيك برباط الود والحب والطمأنينة والأمن .

فالزكاة لا تقوم على ذكر اليوم ونسيان الغد ، بل تأخذ من يومك زادًا لغدك ، ومن غدك تهذيبا وتقويمًا ليومك .

الدرهم في ساحة هذه الفريضة إنساني النزعة في الكسب والعطاء يمثل خلق صاحبه الذي يحمد الله ويرجو أن يتقبل .

والإنسان مع هذه الفريضة حر يجني نتيجة كسبه وعمله .

وهو يدفع قدرًا معلومًا يعلن به ولاءه لخالقه واعترافه بفضله ، وتآخيه مع الجماعة التي يلتقي معها بطبعه .

وفي ظل الحرية المكفولة حرية العمل والكسب لكل فرد يعظم الإنتاج .

ومع حماية الضمير اليقظ للفرد والجماعة الناشيء عن الإيمان بالله والثقة فيه والاعتراف بفضله يتحرك هذا الإنتاج بارًّا بالإنسان حفيا به ، وفيًّا ليومه وغده .

نعم يتحرك الإنتاج بلا تضخم ولا استعباد ، فيحيا معه الفرد بين حرية

الانطلاق البار والاعتدال العف ، لا يشكو تخمة المال الظالم بالكنز ، ولا مسغبة الفقر المظلوم بالشح .

فتوجد أمة الخير ذات اللبنات القوية المستقيمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

يستجير بها المظلوم فتجيره ، ويحتمي بها الضعيف فتحفظه ، ويطلبها المحروم فتعطيه ، ويحتكم إليها العدو فتنصفه ، فتصدر في حكمها له عن شرف الغاية أي عن مراقبة الله فإذا العدو صديق ومعه الحق ، وإذا الصديق عدو إن هو جانبه أو حاد عنه .

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

وذاك قانونها إن هي مكنت في الأرض : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج : ٤١] .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[سورة البقرة : ١٨٣]

(٤) الصوم

الفرد في ظل الإسلام لا يعرف معنى الفراغ المهلك .

الفراغ الذي يوقظ نوازع الهوى ويذهب بشرف الفكر .

فهو صاحب منهج مليء بالواجبات . مملوء بالحقوق والتبعات .

وقد رأيته والصلاة تشيعه إلى مرقده وتبعثه منه وتطلبه من سعيه وترده إليه ، لا ليخرج منها إلى إثم أو فسق بل ليخرج إلى عبادة من نوع آخر .

عبادة العمل على حفظ كيان الإنسان بالسعي المشكور والعمل البار .

والإسلام العظيم يسمي عمل الإنسان كله مع حسن القصد عبادة ، وذلك مفهوم الحصر في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦ ، ٥٧] .

خلقه للعبادة ، لا لشيء آخر أي شيء .

وقد قلت : أن حسن القصد يجعل عمل الإنسان كله عبادة .

وإذا تأملت ما يلزم الإنسان لحفظ كيانه ألفيت أن الواجبات المنوطة به والتبعات اللازمة لحفظ كيانه لا تدع منه فراغًا يقتل حسه ويطفيء إشراق نفسه وينال من طهر فكره .

وألفيت أن العمل في سبيل ذلك يأتي تباعًا :

فهو إن دخل إلى المحراب متعبدًا ليعطي النفس حظها من السمو والطهر انتقل إلى ساحة العمل متعبدًا ليعطي الجسد حظه من المطعم والمشرب ، ووجد نفسه وهو يسعى ويعمل ويسمو ويتطهر أمام كون منظم يدعو إلى التأمل والفكر والنظر والتدبر ، فوضع لنفسه منهجًا يمتد ويتسع حتى يشمل زمن الإنسان كله إن أراد أو اقتدر .

وما يناله من معرفة إن هو ثابر وجد وانتظم قليل مهما طال العمر أو امتد الأجل .

فهو يحيا في كون الله الواسع العريض ، وفي كل يوم يكشف فيه عن جديد ، بل الإنسانية في خط سيرها الطويل لا تصل في معرفتها إلا إلى قدَر ضئيل من أمر الكون المرئي والخفي .

الفكر إذن يعمل وله منهج .

والجسد يتحرك جادًا عاملًا منطلقًا وله منهج .

والنفس بعواطفها وجنانها تتصل بخالقها وتطوف في ميدانها غير المحدود ولها منهج .

والفرد بكيانه كله مع أسرته له منهج .

والفرد مع الجماعة التي يحيا معها له منهج .

ومع الأمة التي تتعرض للخير والشر والنصر والهزيمة ... سار والمسغبة له منهج .

والأمة في مجموعها وهي تحفظ كيانها وتصون شرفها لها منهج .

وهي تعمل للحق وتصونه وتدعو إليه لها منهج .

وهي تحمي أفرادها في اليوم والغد وتعدهم للدنيا والآخرة لها منهج .

وفي علاقاتها بمن جاورها أو حاورها أو عاهدها لها منهج .

والفرد في كل ذلك هو الذي يتحقق به المنهج كله .

فأين الفراغ إذن في حياة الأمة الإسلامية ؟

لا فراغ والإسلام قائم بالنفوس .

لا فراغ والإيمان يعمر القلوب .

لا فراغ في حياة أمة لها غاية بل في حياة فرد له عقيدة ، فإن العقيدة تملي عليه دائمًا أن يتحرك في دائرتها وأن ينتظم في سلوكه مع شرائعها وواجباتها ، العقيدة التي يناديه الله بها دائمًا إذا أمره بشيء ودعاه إليه أو نهاه عن شيء وصرفه عنه .

فيأتي التكليف وقد اقترن بنداء العقيدة - التي هي أصل كل خير - وفيًّا بالغاية ضروريًّا لحفظ الكيان الإنساني .

وهذا واجب بل منهج يكلف المؤمن القيام به عن طريق هذا النداء البار الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

منهج هو للروح والجسد وللفرد والجماعة ، منهج الصوم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٣] .

وقد استعملت كلمة منهج في فريضة الصوم أيضًا ، لأنه محدّد في الفريضة بـ « شهر رمضان » .

ومحدّد في الزمن بحدود الظلمة والنور من الفجر إلى الليل .

ومن عجب أن يقترن تهيؤ الإنسان للعبادة في تلك الفريضة بظهور آية النور - الفجر الصادق . وأن يفطر حين يفطر وقد ظهرت في الكون آية أخرى هي آية الليل . وما الكون وما يدور فيه إلا تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .

نعم ، استعملت كلمة منهج في فريضة الصوم ، لأنه محدد أيضًا من حيث غايته ، شأنه شأن إخوته من الفرائض الأخرى ، فغايته رضا الله إلا أن التجرد فيه أمكن ، فكان أمره في باب الجزاء أكمل .

« الصوم لي وأنا أجزي به » .

وتأمل نموذجًا من حدود الصوم في حديث رسول الله ﷺ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الصيام جنة ، فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم مرتين ، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، الصيام لي وأنا أجزي به ، والحسنة بعشر أمثالها » .

« جدود » .

(أ) « لا يرفث ولا يجهل وإن قاتله أحد أو شاتمه » فليتذكر تجرده لربه وتحرره من شهوات نفسه وليقل إعلانا عن هذه العزيمة الصادقة : « إني صائم » .

(ب) « يترك طعامه وشرابه وشهوته » .

(جـ) وتلك غايته من أجلي : « الصيام لي وأنا أجزي به » ..

الصوم للجسد والروح :

« من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .

« من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

حصانة لكليهما :

للجسد : بالتهذيب والإصلاح .

وللروح : بإبراز خصائصها وانتصار فضائلها .

الحياة لابد فيها من عزيمة صادقة تصدع غوائل الهوى ، وترد هواجس الشر وتبطئ بالهوى الكذوب ، وتنطلق بالإنسان إلى الجهاد الحر الكريم في شتى الميادين .

وهذه العزيمة لابد منها لتحمل أعباء الحياة .

والصوم وهو يمدنا بالعزيمة المتجردة والإرادة الحرة عون من الله لنا على تحمل أعباء الحياة .

وأي عزيمة أصدق بل أي نظام أدق من أن ترى المؤمن في مشارق الأرض ومغاربها يمسك عن طعامه وشرابه في لحظة محدَّدة ثم يتناوله في وقت معين من الليل إلى الفجر .

ثم يمسك زمام نفسه من أن تذل لشهوة أو تسترق لنزوة أو تنجرف في تيار الهوى الضال ، أو تنحرف عن هدي الصراط المستقيم ؟

بل أي إرادة حرة أكرم من إرادة المتجرد لربه المتجه لخالقه الممسك عن هواه تقربًا إليه ، والممتنع عن طعامه وشرابه رغبة فيه ، الحَذِر من مواطن السوء وسفاهة القول رهبة منه ، والمتجه بكيانه كله شوقًا إلى قربه وإيمانًا بفضله ؟

والحياة أيضًا بمراحلها المختلفة وظروفها المتقلبة ومشاكلها المتعددة ، الحياة بسرائها وضرائها ورخائها ونعيمها وبلائها — تحتاج إلى صبر ، والصوم كما قال رسول الله ﷺ « نصف الصبر » والصبر نصف الإيمان .

وأي صبر أكرم من صبر يحرز طاعة أو يرد معصية يتحقق معه في الحالين رضا الله .

ذاك هو الصبر الناشئ عن الصوم الرضي الأمين .

وأود بعد هذه النظرة العامة لتلك الفريضة . أن ندرك من أمرها أنها عبادة قديمة امتدت مع الإنسانية من بدايتها ، لأن الإنسان من يوم أن كتب الله الاستخلاف في الأرض وهو بحاجة إلى إبراز الخصائص التي تؤهله وتعينه على أداء ما استخلف عليه .

والصبر الذي يحققه الصوم من أهم هذه الخصائص التي تؤهله للبقاء ، بقائه كإنسان خلق ليسعى إلى دار السلام ، بفضائله التي يحققها بسعيه ، ويبرهن بما يحقق على أهليته للتمتع بثمار غرسه وجنة ربه .

وغرس الإنسان الخالد لابد فيه من انتقاء البذرة ومن تهيئة الجو والتربة ، لابد من الملاحظة الدقيقة والرعاية الكاملة .

ثم لابد بعد كل هذا من رعاية الله وحماية السماء حتى لا يتعرض الغرس لآفة قاتلة آفة الشرك الخفي والغفلة الشاردة ، أو الغرور ببداية الطلع ونماء الزرع .

والسماء لا تمسك آفاتها بإعلان العصيان عليها أو التمرد على أوامرها ولا ترسل خيراتها لمن يتنكر لها أو ينفصل بقلبه عنها . وإنما تساق بركاتها وتزخر خيراتها ، إذا

النفوس آمنت وأيقنت ، وإذا القلوب طهرت ، وإذا العزائم تجردت ، وإذا الأسباب بعد ذلك توافرت :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٩٦] .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة المائدة : ٦٥] وتلك ثمرة الغرس الطيب ، غرس الإيمان والتقوى .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [سورة المائدة : ٦٦] .

والإنسان من يوم أن وجد يغرس ليبقى .

ولا نفرق بين ما يغرس من نبات ليطعم وبين ما يغرسه من سلوك طيب ، فكلاهما في باب التدين الصحيح القائم على النية الطيبة سبب من أسباب بقائه ، والإنسان على أهبة الانتقال في أية لحظة .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [سورة لقمان : ٣٤] .

وسيجني حتمًا نتيجة عمله وثمار غرسه ، ولن يتخلف ثمر أو يبطيء رحيل .

ورحم الله أبا العلاء المعري إذ يقول :

تشاد المغاني والقبور دوارس ولا يمنع المقدار باب وحارس
ومهما يكن فالله ليس بزائل ويجني الفتى من بعد ما هو غارس

وكما قلت : أن الغرس ما لم تتهيأ له التربة والرعاية والوقاية فلا يرجى له نماء ولا ثمر .

وتربة الغرس النافع القلب السليم

ونماؤه الكلم الطيب والعمل الصالح ورعايته ووقايته بمراقبة الله وخشيته

والآفات لا تنشأ إلا من داخل النفس وهي أمارة بالسوء . فمن رحمة الله بها أن يعينها على إبراز خصائصها وصيانة غرسها .

فيأتي الإسلام متكاملًا لضبط النفس وحصانة القلب ورعاية السلوك . وتأتي فرائضه التي يقام عليها لتكون أسسا راسخة لبنيان متين .

ومن هذه الأسس التي بنى الإسلام عليها « الصوم » الذي فرضه الله لنا وألزمنا تأديته كما فرضه على الذين من قبلنا .

فالصوم مع كونه قربة إلى الله فإنه يعطي النفس قناعتها ، ويعتقها من الهوى الكذوب ، ويحررها من الشهوة الآسرة .

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

لا يكاد شهر رجب يقبل ومن ورائه شعبان حتى يتنسم الناس عبيق الشهر القرآني الفريد .

ولا يكاد يطلع على الناس هلاله حتى يغمر الدنيا ضوء من الخشية الهادئة والذكر الرفيع .

الله أكبر ، أذن الفجر في أول يوم ، فليمسك الناس عن ملاذهم بعد أن حصنوا القلب بالخشية واللسان بالذكر . فليقبلوا مع الإمساك والخشية إلى بيت الله وقد دعاهم داعيه : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [سورة الفتح : ٢٩] .

أي سلوك يطبع الأمة على وحدة مصونة وألفة بارة ومحبة خالدة مثل هذا السلوك المنتظم المرتبط بآيات الكون والمعترف بخالقه ؟

أي سلوك بل أي أسلوب يمكن أن توحد به أمة بعد هذا الأسلوب التربوي الفذ ؟

في لحظة واحدة لحظة الفجر الصادق يتم الإمساك ، والنداء واحد ، والمعبود واحد ، والقبلة والغاية متحدتان .

بدأ الصوم بهذا العبيق المسكوب على الكون والضوء السابح فيه فليبدأ السعي .

والنفس بطهرها وصومها خفيفة الظل طيبة الأثر .

كل قد انتهى من شر نفسه فالتقى على الخير مع غيره عبدا للخالق وأخا للمخلوق .

وإذا النفس أرادت أن تنساق في فترة ضعف لهواها تذكرت صومها فأبصرت .

وإذا الشيطان طاف بهذه النفوس يرجو غوايتها تذكرت الله وهي صائمة خاشعة فرجع الشيطان من ساحتها .

سلاح من الطهر الدائم يحمله المؤمن متجددًا بشعائر دينه ، وبر تطيب به الدنيا ينبع من قلبه ويمليه يقينه .

فتنطلق الهمم قوية بيقينها ، ناعمة بإيمانها ، باسمة بحبها ، راضية بربها ، محفوفة بطهرها ، آمنة في سعيها ، متأهبة للقاء ربها .

وتمضي ساعات النهار مع آناء الليل ندية السعي طيبة الذكر ، يغمر الإنسان مع بسمة الفجر الأول فيض من النور .

يحرر إرادته بالتجرد لله الواحد الأحد ، ويجرد النفس من نوازع الهوى والشهوة .

وإذا كان الصوم قد فُرِض على الأمم الماضية ليظل حبل الإنسانية موصول العزيمة فإن رمضان الذي فرض الله صومه على المسلمين لم يكن مقصورًا على الكبار وحدهم ، بل الأطفال يمرنون على الصوم لينشئوا على العزيمة والإرادة والصبر وحسن القصد .

عن الربيع بنت معوذ قالت : أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار : من أصبح مفطرًا فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائمًا فليصم ، فكنا نصومه بعد وتصوم صبياننا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار .

وإذا كانت العادة ترسخ في النفوس وتعمل عملها في توجيه الأمم والجماعات فإن تعويد الصبي الصوم وتمرينه عليه وهو لم يفرض عليه بعد ينتج أمة طابعها العزيمة والجد وطبعها الإرادة والصبر .

والإنسان يحتاج في رحلة الحياة تلك إلى رفقة صالحة صادقة تعينه على نفسه إذ هو في ضعفه البشري يحتاج إلى العون والمساعدة لينتصر في معركة الحياة .

ومن هنا مدح رسول الله ﷺ جليس الخير وشجع عليه وذم جليس السوء وحذر منه .

وإذا نحن تأملنا ما يصنعه الصوم من إتاحة جو مشحون بالطهر ووجود أمة متسمة بطابع واحد وجدنا هذه الفريضة كغيرها عاملة في تحقيق التآلف الإنساني والسلام العالمي ونحن نلمس ما تحققه من وجود المودة بين الرفقة الجادة الصادقة التي لا تقبل منكرًا ولا تحرص عليه وتمسك عن دخول الزور والعمل به مع إمساكها عن الطعام والشراب لتصهر العزيمة الفردية مع العزيمة الجماعية في بوتقة واحدة ، بوتقة الصوم الطهور واللسان العف والصبر والتجرد ، وهي بوتقة لا تدع الإنسان يفلت من نفسه فيتسلط على غيره .

ومن أودى نفسه بالشهوات والمفاسد امتد شره حتمًا إلى غيره .

والإنسان لا يحيا وحده بل يعيش فردًا في جماعة لها حقوق وعليها واجبات .

فوجب أن يفرغ الفرد أولا من حساب نفسه ثم يتجه خالصًا مشرقًا إلى غيره .

فتلتقي القلوب وقد رفع العازل ، عازل الشهوات الذي يحطم الروابط ويحجب عن القلب نوره وضياءه .

ونور الله متصل دائمًا لا ينقطع أبدًا وقلوبنا صالحة للإضاءة .

والعازل فقط هو الذي يحول بين النور الممتد وبشاشة القلب وهو من أهوائنا وشهواتنا .

فإذا جاء الصوم ليرفع العازل فقد مكن القلب أن يتصل بمصدر الخير

والنور . وأن ينبعث جادًا مخلصًا لإحراز الخير الذي يقربه من ربه ويحرره لخالقه ، وهذا عمل الصوم في الفرد والجماعة :

رفع العازل من شهوات النفوس وأهوائها ليلتقي الناس على مبدأ الخير العام ، وقد وجد الفرد عونه في البيئة النظيفة والسلوك العف .

ولا يمكن أي إصلاح أن يتم إلا من داخل الفرد ، إذ لا يمكن تصور مجتمع بدونه كما لا يمكن قيامه وبقاؤه إلا بصلاحه .

فالعمل في تحصين الفرد تأسيس كامل للأمة ، وإهمال شأنه هدم وضياع لمستقبلها ولا أخال الفرد يصلح وقد فسد قلبه وانحرفت غايته .

الحياة لها غاية ، والإنسان مع الحياة يعظم بغايته ويتجدد بها ، والأمة في مجموعها لابد لها من غاية توحد بين أفرادها ، والإطار العام للإنسانية لا يتم إنسجامه مع تنافر الغايات وتناقضها .

فالإنسانية لكي تسلم وتأمن وتطمئن وتجني ثمرات الأرض وتستقبل بركات السماء تحتاج :

أولا : إلى الفرد الذي يعرف غايته ويعمل من أجلها بكيانه كله .

وآخرًا : إلى الأمة التي تدرك رسالتها وتسعى لغايتها بحيث لا يتعارض سلوك الفرد مع غاية الأمة حتى لايقع التنافر وتنفك الروابط .

وإذا تأملنا في المبادئ التي يصطنعها البشر والمذاهب التي ينتحلونها ألفيناها جميعها قاصرة عاجزة لا تصلح لإمتداد الإنسانية والبر بها لأن غايتها عاجزة وقاصرة .

والإنسان معها عبد منفعة وشهوة لا يلتقي مع غيره إلا في الحدود التي تمليها عليه منفعته وشهوته .

وينبني على هذا حتمًا تصارع الأهواء والشهوات وقيام حروب طاحنة بين الأفراد والأمم والجماعات .

وإذا نحن أنصفنا الحقيقة لم نجد غاية بارة بمصير الإنسان يمكن التقاء

الإنسانية عليها سابقها ولاحقها حاضرها ومستقبلها في حب ومعرفة ، وألفة ومودة ، وإيثار ورحمة ، لم نجد غير الغاية التي تتجه إليها عبادة المؤمن ، الله ، وكفى .

فكل غاية دونها قاصرة في تقرير مصير الإنسان عاجزة عن الوفاء بحقه مفرقة له مع غيره .

وهذه الغاية وحدها هي الهادية الراشدة المجمعة .

تقرر مصير الإنسان الممتد فلا تدعه يحيا في غموض وحيرة وتوجس بل تأخذ بيده إلى جنته فيدرك مبدأه ونهايته ، ويعلم مراحل سيره فتستقيم الدنيا بمعرفة حدودها ، وتطيب الآخرة وقد عرفت النفوس ربها وأبصرت قرارها ومستقرها .

وكل غاية دونها مهما عظمت لا تخرج بالإنسان عن حدود دنياه وما أقصرها ! وتحجبه أن يعد لأخراه وما أخطرها شأنا وأطولها !

وتستطيع أن تدرك عظمة الإسلام حين ترى أن شرائعه كلها تقوم على هذه الغاية الرفيعة التي تعلو بالفرد وتبوئه أكرم منزلة .

وتعصم الأمة وتعدها لأعظم رسالة .

وتتسع للكون فتجمع العباد على رحابة الحب وطهارة الصدق وطمأنينة العدل وسعة الرحمة .

ولنتجرد عن الهوى لنرى صدق ذلك في شرائع الإسلام كلها وبالأخص في الصوم الذي نحن بصدده ، والذي قال الله عنه في حديث قدسي : « الصيام لي وأنا أجزي به » .

ولقد شاء الله لي أن أكتب هذه الصحائف والقطار يتحرك بي في سفر شعرت معه أن الإنسان مهما طال مقامه هنا فإنه مفارق .

والحق أن القطار بعمله يحكي قصة الحياة : حل وترحال ، وفراق واستقبال في منطقة يمضي بليل ، وفي أخرى يسطع عليه النهار . ودنيا الناس لا يبقى ظلامها ولا يستديم عليها النهار .

تحرك بنا القطار فشعرت بروح العبادة تسري في نفسي وأنا أرى الحياة ممثلة في تلك الصورة الساكنة المتحركة ، العابثة الضاحكة ، المجمعة المفرقة .

فأيقنت أن عزيمة تبقي على الإنسان ولا توزعه بين المتناقضات ، وإرادة تمضي به محرزًا لأبر الصفات ، موصولة حتمًا بمصدر الحياة وأصل البقاء ، وأن عبادة تنتج هذه العزيمة وتحفظ هذه الإرادة ، إنما هي عبادة ربانية صادقة شرعت لصون الحياة وتذليل عقباتها ، كما شرعت لتنقية الإنسان وحفظ كيانه .

وذاك هو الصوم المفروض لتربية الإرادة وتقوية العزيمة وطهر النفس وسمو القصد .

ذاك هو الصوم المتجرد الذي يقصد به رضا الله

قرأت الصوم المفروض في كتاب الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٣] .

وتأملت معها : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨١] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٢] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ١١٩] .

وتأملت قول رسول الله ﷺ : « الصيام جُنَّة » أي وقاية والتمست النتائج المترتبة على التقوى فوجدتني أمام هذه الآية الكريمة : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [سورة الطلاق : ٢ ، ٣] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الأنفال ٢٩] .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأعراف ٩٦]

﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢٥] .

فأيقنت مع النظر إلى الواقع والتأمل في كتاب الله أن الوقاية في الصوم شاملة وأن التقوى وهي غاية الصوم بارة بحاضر الإنسان ومستقبله وفية بأمر دنياه وآخرته .

لاشك أن الإنسان في مراحل سيره يمر بمضايق شتى فهو لا يعبر الطريق إلى جنته على بساط الراحة وترف النعمة ، بل يصل إليها عن طريق تربية النفس وعصمة الفكر والرضا بالحق .

وهذا الطريق يصطدم حتمًا بأهواء الناس وشهواتهم .

والذي يعبره يتعرض يقينا لمتاعب شتى وخاصة إذا وجد في عصر تعدم فيه الرفقة الصالحة وتتزاحم الحياة بالغفلة ويتسابق الأحياء في نهم على الشهوات والملاذ ، والإنسان وهو اجتماعي بطبعه يتأثر بالبيئة والمجتمع العام أيما تأثر .

هنا يحتاج السير على طريق الحق اليقيني إلى مغالبة الهوى واستقرار النفس بالحق وطمأنينتها به . كما يحتاج إلى صبر في معالجة السير إلى الله ، وعزيمة تحمل الإنسان فتمضي به مع العواصف في استقرار ورشد وثبات .

وذاك لا يتم أبدًا إلا بعون من الله ووقاية صادقة تحفظ الإنسان من جميع جهاته وترعاه من كل جوانبه ، والوقاية لكي تؤتي ثمارها وتبر بنتائجها لابد أن تقوم في النفس وأن تحيا معها لتبطش دائمًا بالهوى المتطلع وتحرس الجوهر الأصيل . ترد سموم الباطل وظلمته بأصالة الحق ووضاءته . فتقي النفس كل وباء منتشر ، وتحفظها وهي تمضي من جحيم الباطل المستعر .

الإنسان من لحظة ولادته يمر بمضايق يحتاج معها من أول لحظة إلى يد العون والمساعدة ، فهو في لحظة ولادته يحتاج إلى من يستقبله ويبر به ويرحمه .

يحتاج إلى الرعاية الدائمة في قضاء ضروراته المتعددة وهو لا يعبر عن نفسه فيما يطلب أو يرفض ، بل تعبر له القدرة بلسان العطف والرحمة .

يظل الإنسان هكذا محتاجًا إلى غيره يسانده ويمده بتجاربه السابقة حتى

يشتد عظمه ويقوى ساعده ، فيجد أمامه كونًا فسيحًا تبهره نجومه ، وتذهله شمسه ، ويتقلب عليه ليله ونهاره .

ويجد نفسه يحيا بين هواء ينعشه ونبات يغذيه وحيوان ينتفع به .

يجد نفسه بين بشر وحجر وزرع وثمر وسماء وهواء وظلمة وضياء .

وهو لا يسعى في الكون وحده ، بل يحيا في مملكة آهلة بالمخلوقات غنية بالعجائب والمعجزات .

فيتلقى عن الكون الدرس الأول ، وهو درس يناله بكثرة سؤاله عما حوله وقد يغريه التطلع وتحثه غريزة حب الاستطلاع على البحث والتنقيب والمعرفة ، فيمتد الدرس إلى دروس وتتشعب المادة إلى مواد .

ثم يجد غريزة حب البقاء تلح عليه أن يسعى ليحيا وأن يعمل ليبقى ، وهنا يتشعب الدرس إلى دروس يراها فيمن حوله ما بين ممتلئ ومحروم ، وظالم ومظلوم ، وغني وفقير ، وصعلوك وأمير .

يفكر في سر هذا التفاوت فيجد أن المال هو العامل الأول ، وهو عامل يسمونه عصب الحياة وفيه يتنافس الأحياء ، فيعمل جاهدًا لحصوله ، ويكد مجتهدًا لتحصيله .

وهنا يقع التزاحم ويتشعب الدرس إلى دروس ، فمن أين ؟ وكيف ؟ وإزاء هذا التشعب في المطالب والضرورات توجد المضايق وتقام العقبات .

ثم هو يدرك من أمره أنه لا يقيم هنا طويلا ، بل يبقى إلى أجل محدود ثم ينتقل ، يرى ذلك عمليًا في نفسه ومن حوله .

فيجد نفسه مرتبطًا بمصير ممتد وحياة متصلة معلومة في حاجة إلى عمل وكد . وما وراء هذه الحياة الدنيا في حاجة إلى طهر الكد وتقوى الزاد ، والإنسان هنا وهناك يتعرض لمضيقات لابد من التزود لها والاستعانة بالله لتفريجها والخروج منها .

إلى أين أيها الإنسان ؟

إلى حياة أخرى ، إلى صحوة باقية ، فالناس نيام إذا ماتوا انتبهوا .

والجسم الذي فتن به وفتن من أجله قد أودع التراب وانحصر أمره في دائرة ضيقة دائرة القبر واللحد !

ثم ماذا بعد هذا ؟

امتداد وبقاء لروح عادت إلى ربها وانتهت إلى مصدر وجودها .

فأنت ترى بعد مضايق الحياة المعلومة لك مضايق في خط السير الطويل الممتد .

وهنا يمكن أن نتساءل ؟

هل يستطيع الإنسان أن يعالج الأمر في كل هذه المراحل بمحض الفكر والتقدير ، أو أنه في حاجة دائمًا إلى العلي القدير ؟

لا أخال الذين يظنون المخرج الذي عنته الآية الكريمة : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ [سورة الطلاق : ٢] إنه ضيق مالي يعقبه رخاء ، أو مرض يتبعه شفاء فحسب .

ما أظن هؤلاء إلا أناسا حصروا دائرة الخير وضيقوا عمل التقوى ، فالتقوى تلازم الإنسان في مراحله كلها .

ترد وتدفع ، وتعصم وتحفظ ، وتضيء وتنير .

تلازمه وهو يمضي في حياة السعي والعمل ، وتسانده ساعة الحساب والجزاء وتضيء له الطريق وهو يسعى إلى المصير الدائم والحياة الخالدة .

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [سورة الحديد : ١٢] . وفقدانها كما يسبب الهم والارتباك في شئون الحياة يقيم الإنسان على ظلمة حالكة في السير الممتد من قريب وبعيد .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [سورة الحديد : ١٣] .

فالنور يأتي من هنا ، إيمان بالله وتقوى : ﴿ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ [سورة الجن : ١٣] .

قلت : إن التقوى تلازم الإنسان في مراحله كلها .

والإنسان معها يقوم بالتبعات المنوطة به والواجبات المتعلقة بوجوده وهو لا يوصف بها إلا إذا برهن بسعيه على حقيقتها والتخلق بها .

وذاك يقتضي حتما أن يمر الإنسان بظروف مختلفة وشئون متباينة .

ليرى موقفه في السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والبذل والعطاء ، موقفه مع ما يحب وما يكره .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

[سورة البقرة : ١٧٧] .

تر أن صفة التقوى بعد صفة الصدق مرت بمراحل :

من الثقة في الله ، والاستعداد لليوم الآخر ، والاعتراف بالكتاب والنبيين . وذاك يستلزم التجرد عن الهوى وطرح التقليد والتنزه عن التعصب الممقوت كما مرت على اختبار النفس بالبذل والعطاء على ذوي القربى واليتامى والمساكين ، كما مرت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما سبيلا التربية العملية الجادة والخلق البصير .

ثم مرت باختبار الإنسان بالبلاء بعد اختباره بالفرائض والنعماء .

فوقفت عند وفاء الإنسان بالعهد وهو خلق النفس العزيزة بصفاتها المعتدة بخالقها ووقفت تشهد أمر الإنسان في حومة الوغى وشدة العسرة .

فرأت الصبر في المراقف كلها ثم حكمت بالصدق .

فأنت ترى التقوى قد صهرت بالتجربة والاختبار الطويل ، شأن الجوهر الكريم والمعدن الأصيل : يمر بالانصهار والتصفية قبل الزينة والتحلية :

﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾

[سورة العنكبوت : ١ - ٣] .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٢] .

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [سورة محمد : ٤] .

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

[سورة الفرقان : ٢٠] .

روى الطبراني : « إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار ، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، فذلك الذي حماه الله من الشبهات ، ومنهم من يخرج كالذهب الأسود فذلك الذي افتتن » .

فإذا جاء الصوم مفروضًا ليعين على هذه المرتبة البالغة كان جديرًا أن ينزل في شهره – القرآن : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾

[سورة البقرة : ١٨٥] .

وفي تقديري أنه لا يمكن الإفادة بما في التنزيل إلا إذا أبر الصوم بنتيجته وأوفى بغايته « التقوى » .

فهي آية الرشد والمعرفة البارة والسلوك المبصر .

وبقدر ما في النفس من ثقة في العلي القدير تكون الإفادة من هدي الفرقان وبينات التنزيل .

وتستطيع بعد هذا أن تقدر عمل الصائم بالليل والنهار ما بين إمساك وذكر وصلاة ، ودعاء ورجاء .

فتدرك معه أن ذاك كله يورث الخشية ويوفي بالغاية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وهي الغاية التي ينفتح معها باب الخير على مصراعيه ويتسع بها عمل البر وتنفرج أزمات الحياة .

وتمتلىء حياة الناس بالرضا وما أكرمه !

وتطمئن قلوبهم بالذكر وما أحكمه !

يذهب من دنياهم الفقر وقد امتلأت قلوبهم بالقناعة والغنى .

ويرتفع من بينهم الفزع والخوف وقد اطمأنت نفوسهم بالإيمان .

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

[سورة المائدة : ٢] .

أكرم بعبادة الصائم الصادق وقد وفرت للحياة أمنها وللنفس طمأنينتها ، وللفؤاد ضياءه ، وللقلب نوره !

أكرم بعبادة الصائم وقد عصمت نهاره ، وأضاءت ليله ، وحكمت جوارحه ! أكرم به وهو يحيا مشمولا بالتقوى مستنصرًا بالصبر !

فالصوم يجمع مع التقوى التي هي غايته الصبر الذي يعين على تحقيق هذه الغاية .

وتأمل قول رسول الله ﷺ : « لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم والصيام نصف الصبر » .

إن التقوى والصبر يقومان بنفس الصائم الذي يتعودهما عن طريق العبادة المتكررة والفرائض المشروعة .

ويمكن النفس إذا أوتيت صبرها وتقواها أن ينتصر الإنسان في معركة الحياة ، وأن يسلم بين ظروفها المختلفة وأحوالها المتباينة ، وأن يظفر بفضائله وأخلاقه وهي مقومات نفسه وسفينة نجاته .

وإذا نحن تأملنا القصص الذي ساقه لنا القرآن الكريم نبراسا وعبرة ألفينا

الأمرين وقد التقيا يحوطان الإنسان بسياج من الحمى النفسي والاطمئنان القلبي والخشية البالغة والأمل الوثاب .

وقصة الحياة التي يشهدها الأحياء ، وتقوم أدوارها بهم وعليهم تحتاج إلى هذين العنصرين الهامين : التقوى والصبر . وبدونهما يقع الفشل والاضطراب وتأتي الهزيمة : هزيمة النفس أمام نوازع الهوى ودوافع الشهوة .

وإذا صرعت النفس بالهوى بطلت النهضة : وقام السفه مكان العزيمة والقصد .

وعلى ضوء هذا يمكن أن نتأمل قصة فتى على مسرح الحياة الواقعي لنرى عوامل النجاح أمام عواصف الحياة وابتلاءاتها المتعددة وسنن الله مطردة : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٦٢] :

أخ بين أخوته منحته السماء سماحة وحسنا وجمالا ، نزل من قلب والده منزلا كريما إذ الوالد يرى له شأنا ، ويرجوه للحقيقة التي يراها في نفسه موروثة عن آبائه ، يعبث الشيطان بأخوته وما أشد عداوته ، فيحرك في نفوسهم وسائل الكيد بعد الحقد ، فيتقدمون إلى والدهم وهم يلبسون أثواب الرياء التي تشف عن مكر دفين وحيلة مصطنعة .

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١١ ، ١٢] .

والرجل يرى ببصيرته ما يخفيه ثوب الرياء فيقول : ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ [سورة يوسف : ١٣] .

وفي تقدير النفس أنتم لا تؤمَنون عليه .

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۝ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٣ ، ١٤] .

أخذوه من والده حَمَلا وديعًا وأمانة غالية ، فألقوا به في الجُبّ .

وانتقل الفتى من عطف الوالد وحنوه إلى قاع بئر استُخرِج منها فبيع كما تباع السلعة الرخيصة ، زهد بائعها وضن شاريها .

وسرعان ما يرى الفتى نفسه بين قوم جاء به إليهم كيد إخوته ودرهم شاريه ، فهو في نفسه صريع كيد ، وفي دارهم ابن درهم .

وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم .

تأمل معي مراحل السير وأسلوب الامتحان الشاق للفتى الناشيء ابن يعقوب ، وهو يلقى في الجب ، ويباع بالدرهم ، ويجد نفسه بين أناس هو فيهم سلعة مشتراة وبضاعة منتقلة .

وها هي السلعة تتعرض لامتحان الإغراء بعد امتحان المشقة والبلاء ، والصمود لهذا الامتحان أصعب بكثير من الصمود لمحنة المشقة والبلاء ، وخاصة لمن كان في مثل هذا الموضع الذي لا يملك فيه نفسه ، فلا يملك أن يقبل أو يرفض حين يختبر في عفته ويمتحن في أمانته .

هي اشترته فظنت أنها ملكته ، فامتلكت زمام قلبه وشرف نفسه واباء حسه ، لكنها فوجئت حين رأت أن نفس الفتى نفس حر لا تؤسر بقيد ولا تخضع لإغراء ولا تذل لشهوة ، وأيقنت آن ذاك أنها ليست أمام عبد لمخلوق ، بل متعبد لخالق ، هو به حر طليق ، وهي أمامه أسيرة هوى .

تحولت أمام نفسها إلى أمة هو سيدها ومملوكة هو مالكها .

فعز عليها أن تتحول أمام مشتراها إلى هذا الوضع الذليل — وهي امرأة العزيز ، فلوحت بالسجن تخضعه وترضي إباءها .

لكن الفتى الحر استمسك بعفته ، واستغاث بخالقه ، واستعذب ما لوحت به ، وفضله على ما دعت إليه .

﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٣] .

استنجد بربه في صدق فنجده ، واستغاث به في ثقة ويقين فأغاثه ، ولاذ به فحماه : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [سورة يوسف ٣٤] .

أرأيت صبر الحُر ويقينه ؟

أرأيت كيف يدفع ثمن عفته وإبائه ؟

أرأيت ما يتعرض له الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

ها هو ذا ينزل إلى جب من نوع آخر .

ألقى به في الأول كيد إخوته ، وألقى به في الآخر كيد امرأة العزيز .

وهو في الأول قد وجد سنده من الله ، فمن ألقته يد البشر لتخفضه استقبلته يد السماء لترفعه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة يوسف ١٥] .

وهو في الآخر يذكر الله ويدعو إليه ، وهو يعرف خيره في نفسه ويؤمن بقضائه فيمن حوله .

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ ، مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٩ ، ٤٠] .

هنا يتسع الجب وقد ذكر اسم الله ، وينفرج السجن وقد ترددت آياته ، والنسوة يشهدن وهن يقرأن ما في الخواطر من قصد أبيّ ، ويدركن بفطرتهن ما للنفوس من غرض خفي - يشهدن بما للفتى من إباء شامخ وعفة متألقة وطهر فطري .

وتشهد امرأة العزيز - وقد أمضى يوسف في السجن بضع سنين - بأنها

راودته عن نفسه حصحص الحق إدن ، وآن ليوسف أن يخرج ليتبوأ مكانته .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٥٤ - ٥٧] .

آن لليد التي امتدت ليوسف بالكيد أن تأتي لتطلب العطاء .

وللأخوة الذين تآمروا عليه أن يحضروا ليأتمروا بأمره .

هذا لقاء يتم بعد أحداث ، يدور فيه منطق التعامل بِالْحَبِّ ، وتختفي لغة المعرفة والْحُبِّ

﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [سورة يوسف ٥٨ - ٦١] .

وهذا بلاء آخر يتعرض له يعقوب ، بلاء تحتمه الضرورة وتقضي به ظروف الحاجة .

يعقوب لا يأمن الإخوة على ما يطلبون : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ [سورة يوسف : ٦٣] ولا يأمنهم عليه إلا كما أمنهم على أخيه من قبل .

لكنه يستوثق بالله ويفوض الأمر إليه

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ [سورة يوسف : ٨٣] .

ويذهب الإخوة ويعودون كما عادوا من قبل دون أخيهم .

ودلائل الصدق مهما بلغت في موقفهم هذا - لا تأخذ مجالها الطبيعي في نفس الوالد المصاب ، بل يحرك هذا الموقف في نفسه الشوق لابنه الحبيب

﴿ يا أَسفى على يوسف وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ من الحُزْنِ فهُو كَظِيمٌ ۝ قالُوا تَٱللَّه تَفْتَأُ

تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٤ - ٨٦] .

ولنذهب إلى يوسف لنرى ما عنده .

نِعَم الله تترى بعد بلائه ، فهذا أخوه قد اطمأن إليه .

وها هم أولاء إخوته في الطريق إليه ينشدونه لبرهم ، ويطلبون القوت بين يديه :

﴿ يَا أَيُّهَا العَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى المُتَصَدِّقِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٨] .

ويسبح الرجل بفكره في ماض طويل ، ثم يتأملهم في ملاحظة المؤمن الحكيم :

﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٩]] .

يا لهول المفاجأة !

أهذا يوسف الذي اجتمع عليه الكيد ، وبريء من دمه الذئب ، واستقبله الجب ، واستضافه السجن ؟

أهذا يوسف الذي ابيضت عينا والده من الحزن ؟

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] .

إيه يا يعقوب ! استقبل قميص البشرى ، يحمله لك من حمل إليك نبأ الذئب الكذوب : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونَ ۞ قَالُوا تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ القَدِيمِ ۞ فَلَمَّا أَن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُم إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٤ - ٩٦] .

بلى يعلم من الله ما لا يعلمون .

يعلم ما للتقوى من أثر ، وما لليقين من خبر ، وما للصبر من أجر مدخر .

سفينة الصبر والتقوى تصل إلى بر السلام ، ويعانق الوالد ولده وقد شمل الكل

الأمن والعفو والإيمان .

إيه يا آية القدر !

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٩٠] .

أرأيت معي ما عملت التقوى ، وما أوفى به الصبر في واقع الحياة ؟

أرأيت ما تعرض له يوسف ؟

وما فعل اليقين الثابت والصبر الجميل ؟ ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] .

هل يمكن للحياة أن تطيب ، وللسلوك الإنساني أن يطهر بلا صبر أو يقين ؟

وإذا كانت الحياة لا يستقيم أمرها إلا بالصبر والتقوى .

فإن الصوم يفي بهما — وهو نصف الصبر — وغايته ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

أرأيت ما تؤديه للحياة تلك العبادة ، وما تمد به الأحياء من عون يمكنهم من تذليل صعابها ، ويحفظهم من رجسها ، ويصونهم من مفاتنها ، ويمضي بهم إلى غايتهم في عزم ثابت ويقين مستقر .

ذاك ما يوفي به الصوم من تقوى وصبر : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران ١٨٦] .

ولكن هل يمكن كل صوم أن يكون كذلك ، ونحن نرى من عمل الصائمين غير ذلك ؟

نعود فنذكر بما تعرضنا له في الصلاة : من أن الدين كل لا يتجزأ ، فأخذ بعضه كترك كله : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة البقرة ٨٥]

وشتان ما بين صوم تمليه العادة . وبين صوم تسري فيه روح العبادة ذاك

سببه الخوف من الناس ، وهذا دافعه الخشية من الله .

ذاك لا يهذب نفسًا ولا يعصم لسانا ولا يربي خلقًا ، ورمضان على هذه النفوس هم ثقيل .

وهذا ينتج الفضائل كلها ، شأنه شأن الأمور التي يقصد بها وجه الخالق ويتقرب بها إليه . ورمضان على هذه النفوس خفيف الظل طيب الأثر ، تتمناه أن يقبل ، وتحزن إذ يفارق أو يدبر .

ترضاه أن يكون الدهر كله ، ذاك صوم العبادة الذي ينتج الفضائل ويحقق الغاية .

وهو صوم الذين يأخذون أنفسهم بالدين ولا يفرقون أمره ، وينظرون إليه نظرتهم إلى الحياة يرونه حياتهم ، ولا يعرفون أنفسهم بغيره .

أما أولئك الذين يأخذون من الدين الحظ الذي يرضى الناس عنهم ، والقدر الذي يحفظ في الناس وجاهتهم ، ويطوعونه لشهواتهم وأهوائهم ، فهم صنف يحيا لدنيا الناس ، لا يحذر الآخرة ولا يرجو رحمة الله .

ولا يمكن أن نتصور للدين عملا مع هذه النفوس ، كما لا يمكن أن نبصر نتائجه أو نلمس غايته .

إن الشمس وهي من النعم الكبرى – يحيا على شعاعها من يجمع الشهد ، ومن يفرغ السم .

والكل تمده الشمس .

ولكن شتان ما بين نفوس تتقبل هذه النعمة المهداة ، فترى من عملها شهدًا مذابا ، وبين نفوس تشملها النعمة فترى من إنتاجها مرا وصابا !

والشمس واحدة على كل حال ، والعبادة وهي تشرق من مصدرها الأصيل تنسكب بنورها على الكون .

ولكن الناس يختلفون في تقبلهم للعبادة ، كما يتنوعون في سعيهم وسلوكهم

تحت ضوء الشمس .

والعبادة من مصدرها كوكب وضاء ، لكن نفوسًا لا تحسن أن ترى الضوء ، وتختفي إذ يسطع النور .

ما ذنب الصوم مع هذه النفوس ؟

ما ذنب الصوم مع أعين لا تراه وقلوب لا تبصره ؟ ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [سورة النور : ٤٠] .

تلك نفوس تحتاج – أولا – إلى الأصل الأصيل لكل خير وبر : الإيمان بالله الخالق البارئ المصور لتقبل الطيب وترد الخبيث .

فلا خير في عمل مع غيبة الإيمان ، وكل عمل مع الجحود هباء وخسران : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [سورة إبراهيم : ١٨] .

قد تسمع من هؤلاء ثقتهم في الله وتعلقهم به وإيمانهم بثوابه وجزائه ومغفرته ، ولكنها أماني ، ودعاوي من غير دليل .

ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل .

إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم قالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

صائم بالليل يدير الكأس ، وبالنهار يلغ في أعراض الناس .

ما يفعل الله بجوعه وعطشه وهو يتمرغ في رجسه وهواه .

إن رسول الله ﷺ قد حكم بالنار على امرأة صائمة قائمة تنال الناس بلسانها ، وقد قيل له ﷺ : « إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال ﷺ : لا خير فيها ، هي من أهل النار » .

أرأيت أن دعوى الإيمان لا تفيد ، وأن ظاهر العبادة لا ينفع .

شتان كما قلنا : بين شجر مخضر الطلاء ، وبين شجر أصيل ذي غصن ونماء .

ذاك يأتيه الماء – وهو زاد الحياة – فيكشف طلاءه ويبدي رياءه .

وهذا يأتيه الماء ، فيمتد غصنه ويطيب ثمره ويعظم نماؤه .

تأمل الصوم مع نفوس عرفته وقلوب أدركته .

تأمل صبر المسلمين وتقواهم في بدر وتواضعهم وبرهم وهم في أوج النصر في فتح مكة .

ألم تكن واقعة بدر في السابع عشر من رمضان ؟

ألم يكن سعيهم إلى مكة مع بعد الشقة في العشرين منه ؟

فماذا كان من عمل الصوم مع هذه النفوس ؟

أمدها بالعزم والإرادة الحرة والصبر الكريم والشوق إلى لقاء الله .وهي تعمل في ميدان بدر يصول فيها سر الله ويجول ؟!

وأمدها بالعفو وهي تقدر على عدوها الذي أخرجها وقاتلها وبيت الغدر لرسولها .

وتسمع من لسان هذا النبي الكريم وهو يمضي إلى مكة التي غدرت به وتربصت له ، ومعه عشرة آلاف مقاتل تسمع منه يرد على من قال : اليوم يوم الملحمة . يقول : لا . اليوم يوم المرحمة ﷺ .

وتنظر إليه فترى جبهته تكاد تلتصق بدابته تواضعًا لربه وذلة لخالقه وهو يفتح للناس أبواب الأمن والرحمة . من دخل داره فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

ثم يجمعهم وهم الذين أساءوا إليه وتآمروا على قتله ، وهم موقنون أنهم مأخوذون بجريمتهم – لا محالة – فيذهلهم أن يسمعوا من فمه الطاهر الكريم هذا اللطف في التساؤل : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

نعم تأمل عمل الصوم مع هذه النفوس وهي تنطلق في كل ميدان بهمم بارة وعزيمة راشدة وإرادة حرة ، تحذر الآخرة وترجو رحمة الله .

لم يكن الصوم عند هؤلاء صوم بطن أو معدة أو صوم عادة وخشية من الناس ، بل كان صوم الحر عن الضيم ، صوم الأبي عن الذلة والصغار ، صوم الكريم عن المنكر والغدر ، صوم الشجاع عن الجبن والتسلط . بل صوم اللسان عن السوء ، والقلب عن المعصية والعقل عن السفه ، صوم الأمة المتحابة المتآلفة ، صوم الجماعة المتوادة المتعاطفة .

صوم النبوة في سعيها الطهور وعزمها الصبور ، صوم الكريم عن الدنايا والأبي عن الفجور .

صوم أمين ممسك عن شهوة أو قول زور .

فريضة الصوم كأخواتها تعتمد في نتائجها على الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهي تتميز بتجردها واتصالها بمصدر الخير والنور ، حتى الزمن في رمضان حين يسأل عنه زيد بن ثابت رضي الله عنه وقد تسحر مع رسول الله – ﷺ – كم بين الأذان والسحور ؟ قال : « قدر خمسين آية » يالله زمن وضيء يقدر بالتنزيل وما يتلى فيه من ذكر حكيم – إنه لذو شأن أي شأن عند العلي القدير .

وهذه الفريضة كغيرها تعتمد على القدرة ، قدرة الصائم على الصوم ، وإلا وجب الفطر وجاء القضاء عند القدرة عليه ، أو الفدية عند العجز الموقن به : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [سورة البقرة : ١٨٥] .

وتأمل بقلبك ما أثبته البخاري – رضي الله عنه – في هذا المجال :

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل ، فقال يا رسول الله : هلكت . قال : ما لك ؟ قال : وقعت على امرأتي وأنا صائم ، فقال رسول الله ﷺ : هل تجد رقبة تعتقها ؟ قال : لا . قال : تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا . قال : فهل تجد طعام ستين مسكينًا ؟ قال : لا .

قال : فمكث عند النبي ﷺ .

فبينا نحن على ذلك أتى النبي ﷺ بعرق فيه تمر [١] قال : أين السّائل ؟

فقال : أنا ، قال : خذ هذا فتصدق به ، فقال الرجل : أعلى أفقر مني يا رسول الله ؟ فوالله ما بين لابتيها – يريد الحرتين – أهل بيت أفقر من أهل بيتي ؟ فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه . ثم قال : أطعمه أهلك .

أرأيت أن هذا دين الفطرة ، دين الحياة ؟ أرأيت أن هذه الفريضة وأخواتها لا يمكن إلا أن تكون وافية ببر الإنسانية وسعادتها وإخائها وأمنها وسلامها .

أرأيت أنه دين يسر لا حرج فيه ولا مشقة معه ؟

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٦] .

* * *

(١) العرق – المكتل .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ﴾

[سورة البقرة : ١٩٧]

(٥) الحج

ها هو ذا رمضان قد مضى وخلف من ورائه علامة قبوله : خلق بار وسعي مشكور ، مضى رمضان بعد أن زود النفس بشحنة من النور الرباني ، يمضي معها المؤمن وهو على نور من ربه ، يمضي إلى العمل بشرف القصد ، ويتلقى النتائج مهما كانت بطهر اليقين .

فلا يكاد رمضان من كل عام ينقضي حتى تتهيأ النفس للموكب الجماعي ، هيا إلى مجتمع عام ، هيا إلى بيت الله الحرام ، هيا حيث تلتقي الوفود من كل فج في حب ورحمة وإخاء عند الحرم الآمن والبيت العتيق .

نعم لا يكاد الناس ينتهون من فريضة الصوم التي تجمعهم على التحرر والتجرد والتقوى والصبر .

حتى يتهيأوا لفريضة أخرى ، فريضة الحج .

وفي القرآن الكريم سورة سميت باسم هذه الفريضة ، سورة الحج أولها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾ [سورة الحج : ١ ، ٢] .

وهي تفيد أن مجامع الدنيا كلها ستنتهي ، وأن الناس مجموعون لميقات يوم معلوم ، يوم الجمع الأكبر الذي يجزي فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته :

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ للهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

[سورة الحج : ٥٦ ، ٥٧] .

مؤتمر سنوي عام يعقد في الحرم فرضًا في كل عام .

يلتقي فيه الناس من كل فج ، يطرح كل منهم اللباس الذي اعتاده في إقليمه ويرتدي لباس الإحرام ، ويدخل إلى منطقة التجمع متجانسًا مع جميع إخوانه وهو يردد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

فيتوحد ظاهره وباطنه ، ويلتقي مع إخوانه على مبدأ الخير العام « لا إله إلا الله » .

تلتقي أجناس مختلفة من جهات متباينة ، فلا يتفاضلون فيما بينهم بحسب أو نسب أو لون أو جنس ، إنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ، يلتقون وصوت نبيهم يدوي في أعماقهم : « أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدام وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » .

وفي ظل هذا الإيمان الخاشع والتجرد للخالق يدرس الناس شئونهم ويشهدون منافعهم ، إن المنافع التي تتم في مثل هذا الجو لن تكون إلا منافع خير وبر للإنسانية جميعًا .

شئون يدرسها المتطهرون من عباد الله ، الملبون الموحدون ، لن يكون فيها استذلال شعب أو استعمار أمة أو استغلال حق .

شئون تدرس في حرم يجد الطير فيه أمنه وسلامته ، لابد أن تراعى فيه كرامة الإنسان وأن تصان حرمته .

إن فريضة الحج كغيرها تعتمد على الإيمان بالله واليوم الآخر .

وأول ما تفيض به هذه العقيدة على النفوس وهي تذكرها بتقوى الله وخشيته أن تهذب السلوك الإنساني ، وأن تضع المجتمعات في رعاية الضمير اليقظ فتجعل من المجتمع الإنساني مجتمعًا متعاونًا على البر ، إذ كل فرد فيه يعلم أن سعيه من ورائه حساب ، وحسابه من ورائه ثواب أو عقاب ، وأنه يمر بالدنيا ولا يقيم ، فمن وراء اجتماعه هنا جمع أكبر يجني فيه ما غرست يداه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] .

ولا أجد شيئًا يمكن أن يصون المجتمعات الإنسانية ويرعى إخاءها مثل ما تصنع خشية الله والخوف منه . هنا يقبل الإنسان وقد طرح هواه وتخلى عن أنانيته .

وإذا تأملنا فريضة الحج من بدايتها – وهي تفرض الإحرام من مواقيت محددة . وللإحرام لباسه وتلبيته وآدابه الخاصة والعامة : وللإحرام مظهره الجامع الذي يجعل الناس يدخلون إلى منطقة التحريم وقد طرحوا ما به يتفاضلون ويتفاوتون . واتجهت نياتهم وعزائمهم إلى التزود من العمل الصالح الذي يقربهم إلى الله فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج بل ذكر لله وبر بالخلق ، منافع مشتركة تعود بالخير والبر على الإنسانية جميعًا – وجدنا وحدة في كل شيء : في العقيدة فالله واحد ، والكل يستجيب لأمره ويبتغي مرضاته وهو يهتف متجردًا لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك .

وحدة في الاتجاه : فالقبلة واحدة .

وحدة في الزمان : فالحج أشهر معلومات .

وحدة في المكان : فالطواف والسعي والوقوف ورمي الجمار والنحر والتلبية لها أماكنها المخصوصة .

وهذه الوحدة الشاملة تجعل عواطف الناس الذين أقبلوا من جهات متباينة تنصهر في بوتقة واحدة فتمضي إلى طريق واحد هو طريق الخير والبر ، طريق الهدى والفلاح ، الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف معه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٣] .

هذه الفريضة في الإسلام من أهم الفرائض التي تربط الأول بالآخر والسابق باللاحق ، وتجمع الأقطار المختلفة على عبادة مشتركة تصل موكب النبوة من عهد إبراهيم ، وهو الذي أقام البيت وشيده ، وأذن في الناس بالحج بأمر ربه : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [سورة الحج : ٢٧ ، ٢٨] .

البيت بيت الله رب العالمين : ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾

[سورة آل عمران : ٩٦] .

وهو أول بيت وضع للناس ، فالصفة العامة فيه قائمة ونسبته إلى الله لم تتخل عنه حتى في عهود الجاهلية .

ونحن نعلم أن أبرهة حين أراد أن يستولي على البيت الحرام وأن يصرف الناس عنه وساق إبل عبد المطلب جد رسول الله ﷺ ، وطالب عبد المطلب أبرهة أن يرد الإبل قال أبرهة : أتسأل عن الإبل وتترك البيت الذي هو دينك ودين آبائك . قال عبد المطلب : أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه !

نعم نسبة البيت إلى الله ظلت قائمة على مر الدهور والأيام ، وهذه النسبة تجعل من البيت موئلا للناس جميعًا وحرمًا آمنًا للعالمين .

وإذا كانت نسبة البيت إلى الله الواحد الأحد فمن الطبيعي أن يكون باب القصد إليه هو الاعتراف برب البيت والإيمان به .

وهذا الاعتراف في ذاته هو طريق السلام والأمن والخير والبر ، إذ هو جماع الفضائل النفسية كلها .

وهو الحصانة الكاملة التي تصون الإنسانية من الفرقة والتنابز والبغضاء والحسد ، وتعصمهم من الأنانية البغيضة وتصرفهم عن الهوى الكذوب ، وتجرد عزائمهم للغاية العليا التي كلما تعلقت بها قلوبهم زادت محبتهم ، وقويت أواصرهم ، وصدق تعاونهم ، وعظم إيثارهم .

ومن بداية الإحرام كما ذكرنا تلمس هذا الاعتراف وتسمعه : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك .

ألا إن الأيدي التي شيدت هذا البيت وأقامت دعائمه ابتليت في صدق الاعتراف بالله والتجرد له ، فكانت في مرتبة من الصدق صح معها أن تنال هذا الشرف الخالد وأن يوكل إليها أكمل عمل قدسه الإنسان وتقبله الرحمن .

رجل ألقي في النار وهو يحارب الشرك ويحطم الأصنام فما زاده ذلك إلا إيمانا بالله وثقة فيه !

وهو الذي طلب منه أن يذبح ابنه – وما أشق ذلك على النفس – فاستجاب راضيًا لأمر ربه ، وابن عُرِض عليه الأمر : ﴿ إِنِّى أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

[سورة الصافات : ١٠٢] .

أليست هذه أعلى مراتب الصدق والتجرد لله ؟

هل هناك بلاء أصعب على النفس من هذا البلاء ؟

تلك شهادة السماء : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ [سورة الصافات : ١٠٦] .

إن العظائم كفؤها العظماء :

فإبراهيم وإسماعيل بعد هذا جديران أن يشيدا أول بيت وضع للناس .

وهما يشيدان البيت يسألان الله أن يتقبل ، ويدعوانه أن يجعلهما مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة له .

ثم يطلبان من الله رسولا يهدي الإنسانية إلى الحق ويرشدها إلى الخير ويطهرها

من رجس الشرك ويزكيها من سوء القصد .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾

[سورة البقرة : ١٢٦ - ١٢٩] .

ألم تكن هذه دعوة مستجابة ؟

ألم يكن النداء الذي أذن به إبراهيم للحج نداء وعاه الزمن وحفظه التاريخ ؟ إنه نداء للقلوب ، فلا عبرة للأشباح تغدو وتروح ، وإنما العبرة بالقلوب المبصرة والأرواح المستنيرة .

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٧] .

نعم إن النداء الذي أذن به إبراهيم للحج وعاه الزمن واستجابت له القلوب .

سل الشوق دوما وسل الحنين ؟

وسل البكى بدمع سخين .

سل موكب الطهر هنا وهناك .

سل دار القريب ودار البعيد .

سل الحرم الآمن والبيت العتيق ، سلهم جميعًا عن صدق النداء ، نداء الخليل بوحي السماء .

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ [سورة الحج : ٢٧ ، ٢٨] .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك .

إن الإسلام بفرضية الحج ، أرسى للإنسانية دعامتين :

الأولى : الاعتراف الكامل بالآثار الطيبة للنبوات السابقة التي لم تخالطها أهواء الناس ولم تنحرف بها شهواتهم ، فجميع الأنبياء عندنا موطن التكريم والتبجيل . ولكن أهواء الناس هي التي فرقت بينهم فتخاصمت باسمهم وهم من ذلك براء .

والإسلام العظيم هو الذي أحيا الاعتراف بهم جميعًا وقدمهم للإنسانية إخوة متحابين متعاونين في حمل الحقيقة عبر القرون .

« مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأكمله إلا موضع لبنة .. » – الحديث [1] :

فاليهودي على هذا إن تجرد عن هواه وأنصف دينه التقى مع الإسلام ، والمسيحي إن هو تحرر من هواه وأنصف رسوله التقى مع الإسلام .

وهم جميعًا في تقديرهم لإبراهيم وادعاء نسبتهم إليه إن هم أنصفوا الحقيقة علموا أن إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا :

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٨] .

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [سورة الحج : ٧٨] .

هذا دين الإنسانية كلها والأنبياء جميعًا دعاته وعاملون له .

الأخرى : أن الإسلام قد أنصف أيضًا الحقيقة المظلومة التي شوهت على يد الأتباع الذين خالفوا رسلهم وأنبياءهم ، وردها نقية صافية ، تعانق في ساحتها جميع الأنبياء والمرسلين والتقى على فطرتها الأطهار من الأولين والآخرين .

لهذا لم يكن الحج مجرد فريضة تهذب النفس وتعصم السلوك وتجمع أهل الجيل الواحد على الخير والبر ، بل كان عنوانًا للأخوة الإنسانية العامة على مر الدهور

(١) سبق ذكره في الباب الأول .

وتقديرًا للنبوات التي فرقتها الأهواء وانحرفت بها الشهوات مطالبًا باتباع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين .

دين هو في الأصل واحد .

وأنبياؤهم جميعًا يأخذون من مشكاة واحدة ، وينتسبون إلى أب واحد وهم جميعًا على ملته .

من هنا كان هذا الموكب المهيب الذي يقام فرضا في كل عام إعلانًا قويًا عن وحدة الإنسانية في الاستجابة لرب العالمين .

وعن سلامها وهي تتآخى في طهر ومودة ، وتعلن ولاءها لصاحب الملك والنعمة وهذا دعاء النبي وقد رأى الكعبة المباركة : « اللهم زد بيتك هذا تشريفًا وتعظيمًا ومهابة وتكريمًا ، وزد من حجه أو اعتمره تكريمًا وتشريفًا وتعظيمًا وبرا ، اللهم أنت السلام ومنك السلام حينا ربنا بالسلام » .

وكان هذا الموكب أيضًا تهيئة للإنسانية كي تتدارس شئونها وتتداول منافعها في حرم آمن وقلب غير آثم ، لا فسوق ولا جدال ، بل زاد من الخير ولباس من التقوى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٧] .

وكان هذا الموكب أيضًا شبكة الاتصال القوية بين الجهات المختلفة والأقاليم المتباعدة تجتمع كلها في صعيد واحد ، ثم تعود وقد انصهرت في بوتقة واحدة .

تعود وفي قلبها للقيا حنين ، وبين ضلوعها للعود شوق ، وفي خواطرها للإنسانية وفاء ، وفي صلواتها وهي تتجه دائمًا لمنطقة التجمع تقدير للخير أيما تقدير ، وفي مشاعرها وعواطفها وفاء للمعاني والمثل التي حملتها إياها فريضة الحج .

وفي فرائضها الأخرى التي تؤديها ترديد للمعاني الإنسانية الفاضلة في نمط آخر لتطبع النفس على البر والخير ، كل يؤدي صلاته وما أبرها ! وكل يؤتي زكاته وما أكرمها !

وهكذا لا يدع الإسلام الفرد ينطوي على أنانية مفرقة ليحيا وحده وإن هلك

الناس ، بل يطبعه بشرائعه وآدابه على الإيثار والحب والسلام والرحمة ، ويجعل سبيل التقرب إلى الله البر بعباده والألفة بين خلقه ، وذاك هو أكرم السبل وأضمنها لرعاية الإنسانية وحفظ حقوقها ، وهو أضمن طريق لإيجاد سلام دائم ينبع من ضمير الفرد ولا يفرض عليه ويتصل بعواطفه ومشاعره ، وهو كذلك أضمن طريق لإيجاد رقابة صادقة من ذات الفرد على نفسه .

ويمكن للوحدة الإنسانية أن تتم في ظل دين لا يفرق بين جنس وجنس ولون ولون ولا يجعل للقوة والغلبة سبيلا للسيطرة على نفوس الضعفاء بل يمسك بزمام النفس مؤمنة صادقة فلا ينتج عنها إلا ما يؤلف القلوب ويقيم المودة ، وهو يجعل قوة القوى في أن يمسك زمام نفسه وأن يصرف عن الناس شره : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » [1] .

فأنت ترى بعد هذا أن فريضة الحج تخدم قضية السلام العالمي وتفتح باب التفاهم في جميع القضايا التي تخص المجتمع البشري على اختلاف ألوانه دون ما تفرقة بين جنس وجنس .

وإذا كان العصر الحديث قد ألجأته ظروف التوتر المتتابعة لإقامة هيئة الأمم أو عصبتها أو مجلس الأمن فإن الإسلام العظيم قد جعل من فرائضه إقامة هذا المؤتمر العالمي بخصائصه الحية ووسائله النظيفة ، وجعله قربة إلى الله وتبادلا للمنافع ، وجعل المنطقة التي يتم التجمع فيها منطقة « محرمة » يحرم فيها الفسوق والجدال ، كما يحرم فيها التعرض لمخلوق بأذى أو إثم أو قطيعة .

ومكان يجد الطير فيه أمنه وسلامته جدير أن تجد الإنسانية فيه طمأنينتها وإخاءها وبرها وأمنها وسلامها ، لا تنابز ولا تقاطع ، ولا أثرة ولا استغلال ، لا تفاضل بحسب أو نسب ، لا تسلط بقوة أو جاه بل خشوع وخضوع لله الواحد القهار .

هذا الدين بحق : ﴿ فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [سورة الروم : ٣٠] .

---

(١) حديث شريف .

تأمل مدى الحنين الذي يحمله قلب المتوجه إلى البيت الحرام ومدى الشوق الذي يتأجج بين ضلوعه .

تأمل الحج من جميع جهاته وأحكامه لترى أنه مؤتمر إلهي شرع فرضا كل عام على القادرين من المؤمنين ليذكروا الله ويشهدوا منافع لهم .

وهذه الضمانات بصورها العملية الجادة لا تحوج الانسانية إلى حراسة دولية تستوجب اعتمادات مالية ، هذه الضمانات لا يمكن أن تتوافر في المؤتمرات من صنع البشر ، وهي تجعل للقوي صوتًا نافذًا بما تعطيه من حق « الفيتو » كما يقولون ! وكثيرًا ما تتم الاجتماعات في تلك المؤتمرات فلا يسمع فيها إلا التنابز وإلقاء التهم ، بل كثيرًا ما تساق الدول الصغيرة وراء دول أخرى تربطها بها مصالح خاصة !

الأنانية والأثرة والمصالح الذاتية هي التي تسيطر على نفوس المجتمعين ، ولهذا نستطيع أن نقرر : أن تلك المؤتمرات – وإن أجلت الصدام الواقع بين الأهواء – لن تعصم الإنسانية من خراب مدمر وحرب مهلكة .

كيف لا ؟ وفي ظل هذه المؤتمرات سلبت حقوق وسفكت دماء ، واغتصبت أوطان وبات العالم مهددًا ليل نهار بحرب مدمرة مهلكة .

ولم تستطع تلك المؤتمرات أن تفعل شيئًا ما يسوق إلى الناس أسباب الأمن والسلام !

لكن مؤتمر الحج الذي يقام باسم الله يذكّر الإنسان بأخيه : « إن أباكم واحد وإن ربكم واحد » وتجعل أقربهم إلى الله أبرهم بعباده .

وما أجمل أن ترى الحج في موكبه الجامع على عرفات ، وأن تتأمل ما يتردد فيه من ذكر وما يتلى فيه من آيات مع الطبيعة المسلمة السمحة على جبل واسع الأرجاء ، يلتقي الموكب كله ليتم الحج ، والحج عرفة ، الناس جميعًا محرمون ، فهم في لباس واحد وهم يلبون ويعبدون ربا واحدا !

لحظة فريدة يتهيأ فيها للوفود أن تسمع كلمة الإسلام .

وجدير بها فعلا أن تكون كلمة الإسلام في هذا اليوم الذي كمل دين

المسلمين فيه يوم له قداسته في نفوس الحاضرين وَمَنْ وراءهم . سمع المسلمون فيه كلمة الإسلام من فم رسول الله ﷺ .

أعلن الرسول في صراحة وصدق حقوق الإنسان .

وثيقة باقية خالدة تعلن عن طهر النفوس وصفائها كما تعلن عن عظمة الإسلام وكماله .

قال ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير .

أما بعد : فيا أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه » .

وبعد أن تحدث عن الربا وأبطله – وما أضر ذلك على الفرد والمجتمع – وتحدث عن القتل العمد وشبه العمد قال :

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يُعبَد في أرضكم هذه ، ولكن قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

وبعد أن تحدث عن النسيء وأبطله قال :

« إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حقا : لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح .

فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة

الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فإني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله وسنتي ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، فكلكم لآدم ، وآدم من تراب .

أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس بعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى .

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد » .

أليست هذه دعائم الأخوة الإنسانية والسلام العالمي تقرر من فم الرسول ﷺ على عرفات .

« لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » – المساواة .

« إن أباكم واحد وإن ربكم واحد » – الوحدة العامة والأخوة الإنسانية البارة .

« إنما المؤمنون إخوة » – أخوة الإيمان .

« لا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس » – حرمة المال .

« اتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا » – حرمة النساء .

« إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم » – حرمة المال والدماء – أليست تلك مجمل الحقوق التي يجب أن تراعى لتصان الأخوة الإنسانية ، وترعى حرمات الناس ؟

هذا ما يتردد في الحج وما يجب أن يتم ، فيه منافع مشتركة للإنسانية جميعًا .

لا يتردد في المكان إلا ما هو إنساني الفطرة وما فيه بر بعباد الله جميعًا ، إذ كل شيء في المكان يصدر باسم الله ولله رب العالمين .

وإذا نحن وقفنا قليلًا عند الآيات التي تحدثت عن البيت الحرام في سورة الحج رأينا أنفسنا أمام حقائق ثلاث :

١ – أن البيت الحرام للإنسانية جميعًا ، وقد اجتمع في الآية الأولى مع سبيل الله جعله للناس جميعًا : « سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » – ضمان لحرمة البيت وصيانة لحقه ، لتصان حقوق الناس معه .

٢ – أن الشرك بالله هو الداء الوبيل الذي يفتك بالإنسانية ويحطم روابطها ويقطع صلتها بمصدر الخير ، ويذهب بها في أودية سحيقة تتوزعها الأهواء وتأسرها الشهوة ، وأن الإيمان بالله هو الضمان الكامل لعصمة الإنسانية وبرها وصيانتها وحفظها ووحدتها وسلامتها ، وبعدها عن الأنانية والهوى والزور والبهتان ، إذ كلما اتجهت النفوس بصدق إلى خالقها عظم إخاؤها ، وقويت صلاتها وائتلفت قلوبها ، وامتزجت أرواحها .

وكلما انحرفت عن الاتجاه إلى الله ذهبت في أودية الهوى الكذوب والأنانية المفرقة والأثرة الضالة .

ومن ثم فالمعنى الأصيل الذي تدور عليه أحكام الحج بل تقوم عليه أحكام الدين كله « وحدانية الله » فالحج هو البحر الآمن الطهور الذي تستقيم معه الحياة ، ويسلم به الأحياء هو لقلوبهم وأجسادهم وسعيهم وسلوكهم وأمنهم وسلامهم لدينهم ودنياهم ، لعاجلهم وآجلهم .

هو لأفرادهم عصمة ، ولجماعتهم وقاية وأمن وسلام .

ومن أجل هذا تتحدث الآيات عن الأنعام وحاجة الناس إليها ، وإطعام البائس الفقير ، وتربط بين ما يطلب من وسائل البر والألفة ، وبين وحدانية الله وحسن القصد إليه لتجعل عمل البر متصلا لا ينقطع وأسلوب الخير معصومًا عن هوى النفس ، وألفة الناس قائمة على حبهم وتقربهم إليه .

٣ – إن ما يقوم في البيت من عمل وما يقع حوله من شعائر لن ينال الله منه شيئًا . ولكن يناله التقوى منكم ! وهذه وحدها خير بيان لمهمة الحاج ورسالته ، وخير تحديد لعمله وغايته : « ولكن يناله التقوى منكم » . والتقوى كلمة جامعة للفضائل الإنسانية كلها ، وهي بما اشتملت عليه من تضمين الخوف من الله وابتغاء مرضاته تجعل العمل دائمًا في حراسة الخلق والضمير .

فلا تبذل اليد ليكذب اللسان أو ينحرف القلب ، ولا تنفق الأموال ليشترى الجاه ولكن يتم العطاء مع الوفاء ، ويقع البذل مع الصدق ، وتعظم حرمات الله لتصان كرامة الناس ، وينتفي الشرك بالله لينتفي الظلم من دنيا الناس : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة لقمان : ١٣] .

ومن هنا وجب أن نعلم أن حرمة البيت ليست لما فيه من طوب وأحجار ، بل بما يحفظ به من الذكرى وما يقترن به من معان ومثل ، وإلا فقد بين الرسول أن حرمة الدماء والأموال أمس من حرمة البيت الحرام .

وفي ظل هذا يمكننا أن ندرك أن عقيدة التوحيد سارية فيما تراه من زيارة الأماكن أو الوقوف عندها ، وأن التجرد لله الواحد أساس كل شيء في هذا الدين ، ولا شيء من الأماكن يقترب منه لذاته وإنما لتقدير المعاني والمثل التي اقترنت به ، ولا شيء من هذه الأماكن يضر أو ينفع ، وما هي إلا أماكن أمر الله أن يذكر عندها وأن يتجمع الناس من حولها : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٩٦ ، ٩٧] .

بيت وضع للناس ليعبد الله ، وبلد حرام تحرم دماء الناس معه ، وهو يرمز إلى وحدة الاتجاه إلى الله وإلى المثل والمعاني التي تقترن به وتتردد من حوله لتظل الإنسانية مشدودة دائمًا إلى معانيها متجهة إلى رمز وحدتها وتوحيدها وطهرها وصفائها .

ولذا كان الحج كغيره من الفرائض والعبادات هادفا ذا غاية ، غايته طهر النفس وطمأنينة القلب بذكر الله .

غايته : تعارف الإنسانية وتبادل منافعها .

غايته : إشاعة الحب والرحمة بين عباد الله .

غايته : الأخوة الإنسانية البارة في ظل الإيمان الصادق اليقظ .

التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [سورة الحج : ٣٧] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ۝ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الحج : ٢٥ - ٣٧] .

وبعد فما على الحاج وهو يدرك نعمة الله وفضله ورحمته وبره ما على الحاج وقد أدى الفريضة ووقف عند المشعر الحرام إلا أن يتوجه إلى زيارة من بلغ رسالة ربه وأدى أمانته ، إلى النبي الكريم إلى الرحمة المهداة للعالمين ، إلى المدينة التي احتضنت الإسلام في هجرته وناصرته في محنته ، إلى موطن المعاني والمثل والذكريات العطرة والقيم الإنسانية الفاضلة ، إلى زيارة محمد ﷺ تقديرًا لفضله وعرفانًا لجميله وإعلانا عن تقدير المثل التي دعا إليها وجاهد من أجلها : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩] .

° ° °

(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

« حديث شريف »

(٦) الأخلاق والآداب :

أخلاق هذا الدين مستمدة من عقيدته .

وعقيدته كما نعلم فيها من العمق والثبات والرسوخ ما يعطي الأخلاق نفسها روح الثبات والقوة والشمول .

وهي ليست نظريات فلسفية أو مصطلحات علمية تُحفظ ويُقاس عليها أو لا يقاس بل هي نور تحيا مع الوجدان كما تلتقي مع منطق الفكر وسماحة الفطرة .

واتصال الأخلاق بالعقيدة يمنحها روح التجرد من المنافع والتخلص من الرياء الكاذب فلا ينهى الإنسان عن خلق ويأتي مثله كما لا يتخذ من دعوى الأخلاق سبيلًا للكسب الرخيص واستغلال البسطاء والسذج ، وإنما تقوم الأخلاق في نفسه مقام المجاهد في ميدان الشرف والبسالة يدافع عن غاية ويرفع سيفه ويخفضه استجابة لمبدأ ويلقي بنفسه في أتون معركة يجود فيها بنفسه ليمنح الحياة مَن وراءه ظافرًا بما عند الله .

وكذلك الأخلاق قد تضطرك أن تبذل كل مرتخص وغال ولا تستطيع أن تخرج على قانونها أو تخالف حكمها .

وهي ليست نوعًا من الدعة والسكون والتبتل الكذوب ، وإنما هي فضائل النفس الإنسانية الكاملة من شجاعة ، وكرم وبر ، وإيثار وحب ، وعدل وحق ، وإحسان ورحمة إلخ ..

وهي ترتبط والحكمة أيما ارتباط : أي وضع كل شيء في موضعه ، فالشجاعة على الضعيف جبن وظلم ، ومن غير قانون تسلط وبغي ولغير غاية تهور وحمق .

فكل خلق في الإسلام يرتبط بغايته التي إليها يقصد . وليس للأخلاق إلا غاية واحدة : « الإيمان بالله واليوم الآخر » وهذه الغاية هي التي تحدد الباعث على العمل لتتجه به في طريق مستقيم .

وإذا كانت هذه الرسالة الخاتمة قد جمعت أصل الدين كله وشملت نبوات الأنبياء جميعًا .

وكانت مهمة الرسول ﷺ تبليغ هذا الدين الكامل وقد لخص مهمته في قوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » كان الدين منهجًا للأخلاق وكانت الأخلاق هي الدين بكل ما فيه ، وليست خارجة عنه أو زائدة عليه في قليل أو كثير .

فإذا كانت الأخلاق في المناهج العلمية الحديثة قد أصبحت لها فلسفتها الخاصة وأصبحت علمًا ذا شأن له قواعده وبواعثه وضوابطه ونتائجه فإن الإسلام إذا سُئِل عن منهجه في الأخلاق أجاب أنه كتاب الله ، المتمثل في سلوك نبيه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾

[سورة الأحزاب : ٢١] .

ولقد سئلت السيدة عائشة عن خلق رسول الله فقالت : كان خلقه القرآن .

قلت : إن أخلاق الإسلام مستمدة من عقيدته ، وتلك تمنحه روح الثبات والقوة والشمول كما تمنحه روح التجرد من المنافع والتخلص من الرياء الكاذب .

وإذا نحن تأملنا بعض الصفات في ضوء ما قدمنا ألفينا صدق ما نقول : فالشجاعة مثلا وهي فضيلة من فضائل النفس الإنسانية – نجدها تستمد قوتها وامتدادها من عقيدة الإسلام – وما نراه من بطولات نادرة وأمثلة فريدة في الإقبال على الله والتجرد له مبعثها الإيمان بالله وحده .

وقد رأيت مما تقدم من أمثلة في شخصية الرسول ﷺ أن الشجاعة تهدف

إلى غاية شريفة يتحقق بها العدل بين الناس ، ويستقيم معها ميزان الحق وتؤمّن مصالح الناس .

وهي بعد لا تعرف معنى التردد بعد عقد النية والعزم : « ما كان لنبي لبس لامة الحرب أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه » .

كما لا تعرف الفرار في ميدان الشرف إذا حمى الوطيس وهي تنبع من الإيمان بالله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة الأنفال : ١٥ ، ١٦] .

العقيدة تمنحها روح الثبات والإقدام في موضعه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الأنفال : ٤٥] .

وهكذا نرى الصفة الواحدة تبلغ من الرسوخ والقوة والثبات وشرف القصد ما يجعلها في نفس المؤمن أعلى مرتبة وأبعد أثرًا وأشرف غاية منها في نفس غيره .

وإذا كان الإيمان هو الذي يحكم اتجاهاتها ويحدد هدفها كانت خادمة للمثل العليا عاملة لخير الإنسانية جميعًا .

وأنت إذا تأملت الكرم أيضًا في هذا الدين ألفيت الرسول ﷺ وهو أسوة الخلق أجود من الريح المرسلة يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وألفيت المسلمين معه يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ورأيت من صحابته من ينفق ماله وهو يعلن ثقته في الله وغناه بما عنده ، ماذا أبقيت لأولادك من بعدك ؟

فيقول : أبقيت لهم الله ورسوله !

الصفة هنا ترتبط بالعقيدة ، فتأخذ طابع الثبات والرسوخ والشمول وكيف يضن في موطن الجود من يثق أن الله هو الغني الحميد ؟

وهكذا نجد هذه الصفة أيضًا أبعد أثرًا في نفس المؤمن من غيره ، وهي ترتبط بالإيمان بالله فتصبح عاملة لخير الإنسانية جميعًا .

أخلاق هذا الدين تنبع من عقائده . وقد رأيت فيما مضى مصداق ذلك ، كما رأيت أن العبادات التي شرعها الإسلام بمثابة الدربة العملية لتمكين أسباب الخلق وإشاعة روح الحب والرحمة بين الجماعة الإنسانية ، وليست العقيدة في ذاتها والعبادات في أصلها إلا أسسًا مكينة لإشادة البنيان الخلقي الذي حدد الرسول رسالته به : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ولا يوجد سياج تصان معه الحقوق ، حقوق الأفراد والجماعات إلا سياج الأخلاق .

ولقد أنصف أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وفي ضوء ما تقدم يمكنك أن تعرف مكانة الأخلاق في الإسلام ، وكفاك أن تعلم أن الشهادة التي أهلت محمدا ﷺ لدعوة الإنسانية جميعًا هي : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤] .

ولقد عرفت عقائد الإسلام وفرائضه من العبادات .

وهنا نود أن نبين أن ذلك كله لا يفيد صاحبه إذا لم ينتج خلقًا طيبًا وسلوكًا نظيفًا :

قيل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها . قال : لا خير فيها هي من أهل النار .

أرأيت كيف أودى سوء الخلق بقيام الليل وصيام النهار ؟

بل كيف ذهبت المرأة بصيامها وقيامها – وقد آذت جيرانها – إلى النار ؟

من هذا وغيره تدرك قيمة الأخلاق وأن الإسلام يعدها عنوانا للتدين الصحيح ودلالة على الإيمان الصادق بل إن ميزان الإنسان في الخير لا يقدر إلا بها .

وأنت تسمع مما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يومًا : « أتدرون من المفلس ؟

قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع !

قال : المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم ذاك وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ! » .

إن الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك من فرائض الإسلام كلها تبقى إذا توجت بحسن الخلق ، فهو دليل أصالتها في النفس وصدورها عن يقين وخشية :

عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا أخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة – فأعادها مرتين أو ثلاثا – قالوا : بلى يا رسول الله . قال : أحسنكم أخلاقًا »[1] .

وقد سئل رسول الله ﷺ : أي المؤمنين أكمل إيمانًا ؟ قال : « أحسنهم خلقًا »[2] .

وهنا يرد سؤال له خطره وله آثاره المترتبة عليه .

هل يمكن الاستغناء عن الصلاة والصيام مثلا ما دام الغرض وهو حسن الخلق يتحقق بدونهما ؟

وأود قبل أن أقطع بالجواب أن أذكر أن فرائض الإسلام ومعاملاته وآدابه وسلوكه كلها تنبع من الأصل الخالد الذي هو محور الدين كله الإيمان بالله واليوم الآخر .

وأن هذا الدين دين الحياة كما قد علمت يتفاعل معها ويحتضن كل شئونها وقضاياها .

والحياة كما تعلمها في الواقع قائمة على صلة الخالق بالمخلوق خلقًا وإيجادًا

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه الطبراني .

ورعاية وحفظًا ، كما أنها قائمة بالضرورة على صلات العباد بعضهم مع بعض ، فمن حق الإله الخالق على الخلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وأن يشكروا نعمه ولا يجحدوا فضله ، وأثر ذلك يعود عليهم في أفرادهم وجماعاتهم ، فإذا أمر بالإنفاق في سبيل الله فمن ذا الذي يفيد من هذا الإنفاق ؟

وإذا أنتج هذا الإنفاق – وهو يرتبط بمعرفة الله – إشاعة البر بين العباد فعلى من تعود الفائدة ؟

إن الإسلام حين طالب أن يكون العمل كله خالصًا لوجه الله ، وطالب أن تقام فرائضه وعباداته ابتغاء وجه الله . إنما قصد من هذا تحقيق غرضين أساسيين :

أولهما : اتصال العبد بربه وتقربه إليه بما أمر به ، ولاشك أن العبد أحوج ما يكون إلى قيام هذه الصلة وهو يرى كل شيء في قبضة الله .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [سورة فاطر : ٤١] .

كل شيء مسخر بقدرته قائم بحكمته الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب والأنعام والرياح والسحاب والليل والنهار وما خلق الله من شيء والإنسان يشهد كل هذا ويرى آيات الله ماثلة أمامه تبصره وتذكره بقدرة الله : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

[سورة الذاريات : ٤٧ – ٥٠] .

العبد في حاجة إلى رضا الله – وإن هو استقام أو حاد فلنفسه – وهو غير خاف عليه وليس بمعجز في الأرض ولا في السماء : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [سورة فصلت : ٤٦] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ القِيَامَةِ ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة فصلت : ٤٠] ،

﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

[سورة البقرة : ١١٠] .

فمن مصلحة العباد إذًا أن يحسنوا صلتهم بالله وقانونه نافذ عليهم : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ [سورة الحج : ٦٦] . وأن يدركوا فضله ، ويشكروا آلاءه ونعمه . وهذا ما أراد أن يسترعي موسى نظر فرعون إليه حين سأله عن ربه : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَىٰ ۝ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [سورة طه : ٤٩ - ٥٥] .

وأظنك تعلم كما أعلم أن فرعون غفل عن هذه الآيات حتى أدركه الغرق فقال : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[سورة يونس : ٩٠] .

إنه إيمان المكره وقد فات أوانه : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [سورة النساء : ١٨] .

العبد يحيا في نعم الله ويرى آياته في نفسه ومن حوله !

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وهو كذلك عائد إليه ومحاسب بين يديه .

ولاشك أن أداء الفرائض والعبادات إعلان عن طاعة العبد لربه وخضوعه لخالقه وهو في الوقت ذاته أقوم سبيل لتحقيق البر بين الخلق وتمكين الأخلاق الكريمة

في النفس وفي مجال السلوك والسعي – **وذلك هو الغرض الثاني** – .

ثانيهما : تطهير النفس وتحسين صلة العباد بعضهم مع بعض . وأود أن تتأمل جيدًا هذا التماسك الفطري العجيب بين الصلة بالخالق والبر بالمخلوق .

فإذا الناس طرحوا أوامر الله وأرادوا أن يقصروا صلتهم على العباد فحسب زاعمين أنهم يحلون بمكارم الاخلاق التي تكفيهم في حسن الصلة بالناس فقد أهلكوا أنفسهم وأساءوا إلى الناس :

وبيان ذلك أن الأمر قد يشتبه على الناس دماثة خلق عند إنسان لا يؤمن بالله ولا يؤدي فرائضه فيظنون أن هذا قد أحرز الفضائل دون حاجة إلى صوم أو صلاة ولا يمعنون النظر في معرفة الأسباب والنتائج والآثار الناشئة عن ذلك في مجالات حياتهم :

تاجر يعلم أن الصدق سبيل الربح وهو محمود يقبل الناس عليه فيصدق ، ويعلم أن الكذب سبيل الإفلاس وهو مذموم ينصرف الناس عنه فلا يكذب .

ما غاية الصدق عنده ؟

وما غاية تجنب الكذب ؟

المنفعة لا غير .. منفعة الجسد ، متعة الحياة .

تأمل هذه الصفة نفسها مع الإسلام .

ما غاية الصدق عند المؤمن الذي يؤمن بالله ؟ أن يرضي ربه ولو أدى الصدق إلى زوال منفعة أو استجلاب مضرة .

ويتجنب الكذب لأن الكذب يغضب الله ولو جر عليه ربحًا وافرًا ومالا كثيرًا : فالغاية هنا تثبت الفضيلة وتتسع في تطبيقها ولا تربطها بمنفعة قد تزول ، فتزول الصفة معها . هي عند هؤلاء كنبت اجتث من فوق الأرض ما له من قرار .

وعند أولئك : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥] .

نحن لا ننكر الصفات التي ركزت في طبائع الناس والتي أشارت إليها الآية الكريمة : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [سورة الشمس : ٨] ، فهي أسلحة زود بها الإنسان أي إنسان ليقوى على معركة الحياة ولقد جاء الإسلام إلى صفات النفس ليعمق جذورها ويوجهها وجهة الخير العام ، ويجرد هذا السلاح لخدمة الخير والبر والحق : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [سورة الشمس : ٩ ، ١٠] .

وهذا الجهد الذي نيط بالإنسان في تزكية النفس وحمايتها من الرجس قد أُعين عليه من قبل الحق تبارك وتعالى بشرائع الإسلام وفرائضه : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [سورة التوبة : ١٠٣] .

ولكن الأمر قد يشتبه عليك كما قلت .

فترى إنسانا لا يؤمن بالله ولا يلتزم أوامره ويتسم بصفات نفسية فتظن أن هذا وحده يكفي في تحقيق الأمن والسلام والرحمة ولا تفرق بين الصفات الأساسية التي زود الإنسان بها ليقوى على شئون الكد والعمل وتحصيل القوت والزاد ، وبين الأخلاق التي طالب الإسلام بتحقيقها على صورة معينة لتسلم الحياة حقًا ويتحقق السلام صدقًا ويشيع البر والعدل والرحمة .

قد تكون الصفة التي يطلبها الإسلام هي الصفة الأساسية التي يتسم بها كل إنسان مؤمنًا كان أو كافرًا .

ولكنك قد عرفت الفرق بين غاية الصفة في الحالين مع أنها صفة واحدة تغير أثرها بسبب الدافع والباعث .

وفرق آخر هو أن الإسلام قد وضع للأخلاق أسسًا ثابتة ومحورًا يدور عليه لتستديم الحركة ويبقى التفاعل بين الخلق متسمًا بالألفة والتعاون متجردًا من الغرض والهوى والتسلط والبغي ، هذا المحور كما عرفت : « معرفة الله وخشيته » .

وفي نظري أن الذين يعتقدونها دنيا فحسب لا يمكن أن تستقيم بهم دنيا أو تستقر معهم أخلاق :

وذلك أن نظرتهم إلى الدنيا فحسب تقطع صلتهم عن الإيمان بالله الذي هو رأس الفضائل كلها ، وتجعلهم يحرصون على إحراز ما يمكن إحرازه من أمر الدنيا التي ليس وراءها في تقديرهم شيء قد يلبسون ثياب الطهر أو يسدلون على أنفسهم لون العفاف لكنه ثوب على كل حال يخلعونه إذا لم يلائم طبيعة الجو ، ويلبسون غيره مما يتناسب هو والأجواء التي يعيشون فيها أو ينتفعون منها .

فلا تقل عن إنسان يراها دنيا فحسب أن أخلاقه تسمى أخلاقا اللهم إلا في مذهب المنفعة الذي يحدد الباعث بها ويقصر شئون الناس عليها .

وهو مذهب إن حدد الباعث عند بعض الناس لكنه قاصر عن أن يقيم لهم منهجًا خلقيا تستقيم به أحوالهم أو يفتح أمامهم بابا للتدرج إلى الكمال الذي هو صميم رسالتهم في الحياة .

لكن الإسلام وهو يجعل للأخلاق أسسًا ثابتة ومحورًا تدور عليه وغاية أعلى تتجه إليها يفتح أمام الإنسانية باب الترقي إلى الكمال ، وهي كلما ارتقت اتسع أمامها مجال العمل للخير وانفتح سبيله .

وهو بهذا يتيح للخصائص الإنسانية أن تنطلق في ميدان فسيح تتجه إلى أرفع غاية وتهدف إلى أكمل غرض . وهذه تقصر دونها المذاهب الأخلاقية على الإطلاق .

وباب الترقي إلى مرتبة الكمال لا يقف عند حدود المنفعة المادية وإن لم يتنافى معها اللهم إلا إن وقف الإنسان عندها ولم يتجاوزها إلى غيرها من الحقوق والواجبات وعدها غاية له يسخر من أجلها قواه الحسية والمعنوية ويتذرع من أجلها بالفضيلة والأخلاق .

الإسلام لا يهمل المنفعة المادية وهو يفي بحق الجسد في إطار ما نسميه بحسن الأخلاق . والحقوق في الإسلام تتنوع حتى تشمل العناية بالمادة والروح والتقرب للخالق والبر بالمخلوق : « إن لربك عليك حقًا ، وإن لنفسك عليك حقًا ، وإن لأهلك عليك حقًا ، فأعط كل ذي حق حقه » .

ومن هذا تستطيع أن تدرك خطأ أولئك الذين ظنوا مهمة الدين قاصرة على

تنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق وأن أمره ينحصر في مادة العبادة فحسب .

فهذا إن ضح في دين من الأديان فإنه لا يصح أبدًا في دين الإسلام لأن هذا الدين لم يدع جانبًا من جوانب النشاط الإنساني الفردي والجماعي إلا رسم له منهجًا كاملًا للسعي والسلوك ، ولم يكتف بتنظيم العلاقة بين الناس بعضهم وبعض بل تحدث – كما عرضنا – عن علاقتهم بالكون في آيات تدعو إلى التأمل والنظر والمنفعة واليقين .

قلت : إن باب الترقي إلى الكمال لا يقف عند حدود المنفعة المادية وإن أوفى بحقها في حدود ما يسمى بحسن الأخلاق .

كما أنه لا يحدد معايير للفضيلة تقاس بها كما تقاس المسافات أو تحدد أضلاع المثلثات . ليست وسطا بين رذيلتين على الإطلاق كما يقول أصحاب المدرسة اليونانية القديمة فإذا أخذنا فضيلة الكرم مثلا وهو من مكارم الأخلاق فماذا نحكم على إنسان أنفق ماله كله في سبيل الخير والواجب هل يعدّ إسرافا خرج به صاحبه عن حدود الوسط فدخل به إلى منطقة الرذيلة وهي الإسراف ، أو نعدّ عمله هذا من محامد الشيم ومكارم الأخلاق ؟

إنه ليس من الإنصاف في شيء أن يسوق بعض المفتونين بهذا المذهب بعض آيات القرآن التي تطلب الاعتدال في شئون النفس ليجعلوا من القرآن نفسه دليلًا على صحة هذا المذهب ، وأن الإسلام العظيم يربط المسلم بالواجب فحسب .

قد يقتضيك الواجب أن تنفق مالك كله وأن تجود بنفسك .

وأنت تبصر الواجب في الإسلام في ضوء عقائده وتعاليمه .

والغاية العليا في الإسلام تصحح دائمًا النية والقصد كما تصحح الوسيلة والسعي .

وإذا قيل : إن الخير يجب أن يقدر لذاته دون نظر إلى ما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، والدين الإسلامي كغيره من الأديان يرتب على فعل الواجب جزاء ، وهو ما يتنافى مع تقدير الواجب لذاته ، إذ قد يكون النظر إلى الجزاء المترتب عليه لا للواجب في ذاته .

نقول : إن تقدير الخير في الإسلام يزيد على ما زعمه أصحاب هذا المذهب ، إنه يتسم بسمة الربانية التي تجعل صعود الإنسان في آفاق الكمال لا يمكن أن يحد أو يقف عند حد ، لأن فاعل الخير يسعى إلى إرضاء الله وهو الكمال المطلق : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [سورة الشورى : ١١] .

ولا يضر القضية في شيء أن تسمع في الإسلام عن الجزاء المترتب على الأعمال ، فلئن صح أن يكون باعثًا على العمل عند بعض الناس – لكن منشأه الإيمان بالله والثقة فيه – إذ الجزاء الحقيقي الذي رتبه الإسلام على العمل هو الجزاء الأخروي .

وهذا مبني أولا وآخرًا على الثقة في الله . علمًا بأن المؤمن يحيا دائمًا بين الخوف والرجاء مما يجعل عمله متوجهًا أصلا وقصدًا إلى الله وحده .

فالذي يدور في نفسه أن الله يرضى ، ويشعر هو في قرارة نفسه براحة ومتعة أن وفقه الله لخير صنعه أو بر قدمه .

وإذن فالجزاء الذي تحدث عنه الإسلام ليس جزاء تناله ممن صنعت إليه معروفًا في الدنيا . إنما هو جزاء ينتهي بتجريد الباعث من كل غرض أو هوى ، ينتهي إلى نقطة التجرد إذ يقصد رضا الله حتى في حالة التطلع إلى جنة الله إذ كيف يطمع في جنة الله أو يعتقد حتى في وجودها ما لم يثق أولا في الله الذي أخبر عنها ووعد بها على لسان رسله .

فهو إنما يطلبها نتيجة تصديقه بوجودها وإيمانه بخالقها .

وما لنا ننكر أن ننال من الله فيضا من نعيم الآخرة ماديا كان أو معنويا ونعد ذلك نقصًا في الخُلق الذي ينظر إلى الخير في ذاته دون ترقب لثواب أو عقاب .

مع أن هذا الفيض لم ينقطع قط ولم نعد في يوم ما غير متخلق هذا الذي يقف بين يدي الله يطلب طعامه وسد حاجته .

الطلب من الله في حقيقته تجرد ، والرغبة فيما عنده في ذاتها تنزه ، والنتيجة في كليهما تجميع لأمر الخلق وإشاعة الحب وتشييد لدعائم الخلق .

والإسلام كما قلت : جعل غاية المسلم من عمله وسعيه وحتى مأكله ومشربه ولذته الحسية والمعنوية وجه الله ، فهو لهذا جعل النية بعيدة عن الرياء والسمعة والغرض ، ويرتب الجزاء في الآخرة على هذا الأساس .

وأنت تسمع من فم الرسول الكريم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وتسمع منه حين يسأل عن الرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل حمية : أي ذلك في سبيل الله ؟

فيقول : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

بل تسمع القرآن وهو كتاب الله الخالد يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

[سورة النساء : ١١٦] .

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ١٤٥ ، ١٤٦] .

أي شيء هذا الأجر ؟ وما حدوده و وما تحديده ؟ كل ذلك متروك لله وحده . المؤمن يحسن العمل تقربًا إليه وكفى ، ويتنزه في عمله أن يشرك وكفى .

ومن السخف أن يقال عن الجزاء الأخروي الذي تحدث عنه الإسلام أنه جزاء مادي محسوس فحسب ، فذاك ما يناقض بداهة الفطرة التي تحدث عنها الإسلام وعد نفسه دينها :

فالإنسان في الدنيا ليس جسدًا فحسب حتى ينتقل إلى الله منعمًا بجسده فحسب :

إن الأديان جميعًا تنظر إلى النعيم الإلهى كأنه المثل الأعلى للحياة الدنيوية وليس في المثل الأعلى في الحياة – في عقيدة المسلم – ما يجعله على رغم المضللين من

أعداء الإسلام جسدًا محضًا في أخلاقه وآدابه أو يجور على الجانب الأخلاقي فيه .

ومن أبى عليه دينه أن يكون في الأرض جسدًا محضًا فمن السخف أن يقال أنه يرضى لنفسه أن يكون جسدًا محضًا في جوار الله الذي بلغ به الإسلام غاية ما يتصوره العقل والضمير من التنزيه . وهذا قسطاس لا يخطيء في تقويم كل خلق حسن يستحبه الدين في المسلم إنه مأمور ألا ينسى نصيبه من الحياة الجسدية ، ولكنه مأمور في الوقت نفسه أن ينظر إلى صفات الله الحسنى كما تجلت في أسمائه التي وردت في القرآن الكريم فهي قبلته التي يهتدي بها في كل مكارم الأخلاق لا يكلف أن يدرك منها شأو الكمال الإلهي ، ولكنه يكلف منها ما في وسعه كأنها قطب السماء الذي يهتدي به ملاح البحر وهو أنه في فلكه الرفيع بعيد المنال .

والأخلاق التي يهتدي إليها المسلم بهدى الأسماء الحسنى كثيرة وافية بخير ما يتحراه الإنسان في مراتب الكمال المطلوبة لكمالها مع عموم نفعها في حياة الفرد والجماعة . ومنها : العزة والقدرة ، والكرم والإحسان ، والرحمة والود ، والصبر ، والعفو ، والعدل ، والصدق والحكمة ، والرشد ، والحفاظ ، والحلم ، واللطف ، والولاء ، والسلام والجمال كلها كمال لأنه لا يقاس إلا بمقياس الكمال [1] .

بقى هناك أمر نود أن نشير إليه :

وهو أن بيان الخير والشر أو تحديد معالم الفضيلة لا يكفي في هذا المجال ما لم يكن من ورائه ضمير وقلب ، والمذاهب الخلقية التي تتحدث عن الخير لذاته أو تبين معالم الفضيلة دون أن تربطها بأصل ثابت إنما تفقد روح الحياة وسبب البقاء ، ولا يمكن تحقيق خلق وإيقاظ ضمير بمجرد مدح الفضيلة أو الرذيلة أو التنفير منهما ؛ بل لابد كما قلت من ربطهما بأسباب الحياة أي صدورهما عن الإيمان بالله في الإقبال على الفضيلة والبعد عن الرذيلة .

نعود بعد هذا الاستطراد إلى التساؤل الذي سقناه أولا ونورده على هذه الصورة

---

(١) حقائق الإسلام : للأستاذ العقاد .

لنبين أثر ما يترتب عليه :

هل يمكن الإنسان أن يتسم بالأخلاق التي يصلح بها أمر الناس ، وهو لا يؤدي الفرائض الإسلامية التي أوجبها الله عليه .

وأود أن أقرر أولا :

أن الإسلام ينكر صورتين هما :

رجل يتسم بالأخلاق وهو لا يؤدي الفرائض التي أوجبها الإسلام عليه ، ورجل يؤدي فرائض الله ولا يتسم بطهر الأخلاق .

أما إن الإسلام ينكر الصورة الأولى فلأن هذه الأخلاق لا يمكن أن يصلح بها أمر الناس ، ولا يمكن أن تمتد معها الألفة بينهم وهي مقطوعة الصلة بالله .

وأما إنه ينكر الصورة الأخرى فلأن هذه الفرائض أيضًا لا تنبع عن معرفة لله صادقة فهي أقرب إلى الرياء منها إلى الأخلاق .

وأنت تسمع من فم رسول الله ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » !

أما وقد عرفت أن الإسلام ينكر الصورتين معًا فتعال بنا نفصل القول فيهما :

رجل يتسم بالأخلاق وهو لا يؤدي الفرائض التي أوجبها عليه ربه هل يمكن لدنيا الناس أن تسعد بمثل هذا أو تطمئن إليه ؟

لكل إنسان في الحياة غاية فما غاية هذا ؟

قد يقال : إنه يؤمن بوجود الله ويخشاه ولكنه لا يؤدي الفرائض ، ويتسم بالأخلاق النابعة من إيمانه بالله .

نقول : الذي يخشى شيئًا أو يحبه لا يخالف أمره ولو خالفه مرة أو مرات عاد إليه يلتمس العفو والمعذرة ، أما الاستدامة على الترك والمعصية فهي برهان عدم الخشية منه أو الرجاء فيه وإذن فما غاية الأخلاق الطيبة عنده ؟

قد يقال : إن الشيء الطيب يحب لذاته فلم لا يكون تقدير هؤلاء للخير مثلا

وحبهم له لذاته دون النظر إلى أي شيء آخر ؟

وهذا يعد في مذهب الأخلاقيين عين الخلق وحقيقته .

حب الخير لذاته ، وتقديره لذاته .

نقول : أروني كم من الناس على هذه الحال ؟

قد يقال : يمكن إيجاد هذا النوع دون حاجة إلى فرائض الدين .

ونحن نقول : لا يمكن إيجاده بصورة صادقة إلا بفرائض الدين .

وقد عرفت أن صفات الله وهي الكمال المطلق يتخذها المؤمن غاية له في الأخذ بأسباب الكمال والرفعة .

فهل يمكن حب العدل مثلا لذاته أن يكون عدله أوسع مدى وأبعد أثرًا وأوفر كمالا من العدل الذي يحبه المسلم ويتخذه غاية له ؟

إذن فتقدير الشيء لذاته يتحقق في الإسلام بزيادة تيسير الأسباب التي تجعل التقدير للشيء يقوى ويتفاعل في حياة الناس وأحوالهم الخاصة والعامة .

وإذا كان الحق تبارك وتعالى هو الكمال المطلق فهل يمكن أي إنسان أن يرقى في ميدان الفضائل وأن يسير في طريق الكمال دون أن يتخذ لذلك سببًا من فرائض الإسلام وشرائعه ؟

إن فرائض الإسلام معراج رباني للصعود إلى أفق الكمال ، وتأمين قدسي ضد المؤثرات المعوقة والأهواء الحاجبة .

إنها مناعة ضد التقلبات واختلاف الأجواء تحفظ على النفس روح الاستقامة والاعتدال ، والمناعة شيء يقوم في النفس يحفظها ويصونها من الأجواء العابثة والتيارات العفنة .

ولا يصان السلوك الإنساني إلا بهذا الزاد الرباني الذي يطوع النفس للخير ويربيها على الطهر ويمدها بالزاد المتصل للحياتين معًا حياة السعي وحياة الجزاء .

وما أخال الذين يتحدثون عن الذاتيات المجردة فيقولون : إنهم يقدرون الخير لذاته والفضيلة لذاتها .

ما أخال هذه المذاهب وما دونها – وهذه أمثلها – إلا فلسفة فكر أقرب إلى النظريات العقلية منها إلى المنهج الواقعي أو السلوك العملي .

وإلا فماذا أغنت هذه المذاهب عن أصحابها ؟ وماذا صنعت لنا في واقع الحياة من نهضة أو حضارة أو تغيير أي تغيير لسلوك الإنسانية المنحرف ؟

إن الإنسانية كلها من جراء الطغيان المادي تحيا في جحيم مستعر ، وتتقلب على برکان من الحمم يفقدها لذة الأمن ويسلبها نعمة الاستقرار ولم تصنها بشيء فلسفة الأخلاق أو نظريات الأخلاقيين .

إننا نطلب منهجًا للسلوك العملي يتفاعل مع الحياة تفاعل الماء والغذاء في جسم الكائن الحي ، أما أن يقال تنسم عبير المسك فإنه يغنيك عن الطعام والشراب ، وأمسك عنهما مكتفيًا بما يأتيك من هذا العبير ، فثق أن الإنسان مشرف على الهلاك لا محالة إذا لم تصله مادة الحياة ، ولن يغنيه أن يصع بجواره كمًّا من العطر أو قنطارًا من المسك !

إن الإسلام بفرائضه العملية المتكررة يقدم مادة الحياة ، يقدم الزاد اليومي المتصل الذي يتفاعل مع السلوك تفاعل فطرة لا تكلف فيها ولا عسر معها .

إننا لا نقنع في قضية الأخلاق بالترف العقلي في وضع المذاهب والنظريات ، إنما نقنع إذ نرى أسباب الخير والحق والحب والجمال تتحقق في حياة الناس ، ولا يتم ذلك أبدًا وقد جحد حق الخالق وعصى أمره .

وإذا جحد حق الخالق – وكل شيء في الوجود صنعته – فماذا تنتظر بعد ذلك من وفاء للعباد أو تقدير لشئونهم أو رعاية لحقوقهم ؟

إذا جحد حقه وخالف الناس أمره تنوعت البواعث وتعددت السبل فذهب الناس في أودية شتى .

نعم تتنوع البواعث والدوافع ولا يمكن تحديدها بعد ذلك بمنفعة أو لذة أو قوة أو ضعف أو حب للخير في ذاته أو إظهار حُبٍّ لالتقاط حَبٍّ تتنوع البواعث

فيفترق أمر الناس وهذا ما وقع حين انصرف الناس عن الغاية المجمعة وارتكنوا إلى مذاهب من صنع البشر ذهبت بهم في أودية الفرقة والتنابذ .

أروني مذهبًا أخلاقيًّا اتفق مع الآخر أو استطاع أن يخفف من ويلات الشر ويتجه بالناس إلى طريق الخير ، والإنسانية في كل يوم تقترب من الهاوية وتقف على حافتها !

إن الاعتراف بالله ليس دعوة أو فلسفة فكر ، بل هو حقيقة في القلب يصدقها العمل ورشد في الفكر يعصمه اليقين .

ومن ينشد إنسانا للحياة لابد أن يتأمل مكانة الأخلاق عنده .

وسبيل الأخلاق إنما هو الدربة العملية على أحكام الضوابط النفسية التي تبقى عليه إنسانًا يرى وجوده فيمن حوله وسعادته من سعادتهم .

إنسانا محبا للخير والبر مؤمنا بالحق مدركًا لحقيقة وجوده وغايته .

وفرائض الإسلام خير ميدان للدربة العملية على الطهر الدائم ، وإقامة ضوابط نفسية تصان معها الحقوق .

وهي دربة على التحمل والصبر والإمساك عن الإثم وقول الزور ، دربة على القناعة وحب الخير للناس ، ثم إنها سبيل عملي للامتزاج بين الناس في محراب الصلاة وبين شعوب الأرض قاطبة في واد غير ذي زرع يخرج الناس منه من شهوات المتع الزائفة إلى الوحدة والتجرد والصدق والرحمة .

وقد رأينا مصداق ذلك في حديثنا عن هذه الفرائض ، وهي ترتبط بالعقيدة التي هي محور عبادات الإسلام ومعاملاته ومصدر آدابه وسلوكه .

قلت : إن الإسلام ينكر أن يكون المسلم متسمًا بالأخلاق ولا يقيم الفرائض التي أمر الإسلام بها لأنه ينكر أن يرى إنسانا بلا غاية أو يراه بغاية منحرفة وقد رأيت أن الإنسان إذا لم يقصد وجه الله في عمله فلابد أن يتنوع الباعث ويتعدد الغرض ، ثم يتشكل الإنسان على حسب ما يملي عليه الباعث ويدعوه الغرض .

وذاك لا يمكن أبدًا أن يتم عليه تجميع الناس أو يقع عليه تعاونهم أو تتوافر به سعادتهم .

والواقع العملي للحياة هو أقوم دليل .

وأما أن الإسلام ينكر أن يرى إنسانا يؤدي الفرائض ولا يتسم بالأخلاق فلأن ذاك في نظري تاجر في سوق المنافع وضع على محل تجارته إعلانا ضخمًا عن الصدق والأمانة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفي مخبآته معمل للغش والتدليس إلا أنه غش يأخذ صورة الورع وتدليس يلبس ثوب الصدق !

وهذا ما دعا عمر أن يسأل الذي جاء بين يديه يزكي إنسانا في قضية ما : هل كنت جارًا له حتى تعرف أمره ؟ قال : لا .

قال عمر : هل سافرت معه سفرًا ظهر لك فيه صبره من جزعه ؟

قال : لا .

قال : هل عاملته بالدينار والدرهم حتى يظهر لك حلاله من حرامه ؟

قال : لا .

قال : هل رأيته يجلس في المسجد يصلي ويتمتم ؟

قال : نعم .

قال : اذهب فلست تعرفه .

وقد سمعت حكم رسول الله ﷺ في المرأة التي صامت نهارها ، وقامت ليلها ، ولكنها آذت جيرانها بلسانها .

واسمعه صلوات الله وسلامه عليه وهو يقول فيما يرويه عن ربه :

« إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ، ولم يستطل على خلقي ، ولم يبت مصرًّا على معصيتي ، وقطع النهار في ذكري ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب » . « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل : مَن يا رسول الله ؟

قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه »[1] .

إن الإسلام حياة متكاملة ووحدة لا تقبل التجزئة :

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٨٥] .

فلا يمكن في دين الله أن تقبل صلاة يقوم بجوارها الكذب .

أو زكاة يصاحبها مَنٌّ أو أذى أو رياء وفخر .

كذلك إمساك عن طعام وشراب لا يقترن بالإمساك عن الإثم وقول الزور كما لا يقبل الدين حجا يقترن بإثم أو فسوق ففي الحديث الشريف : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا » والله تعالى يقول : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [سورة الحج : ٣٧] .

إن كل شيء في كون الله قد وضع بنسب مخصوصة لكي يؤدي الغرض الذي خلق له وسيق من أجله بحيث لو اضطربت هذه النسب بطلت الفائدة وانعدم النفع وخرج الشيء عن حقيقته ، وربما تحول إلى شيء ضار بالحياة والأحياء .

فالماء والهواء مثلا يقومان على نسب معينة تجمع بينها الحكمة العالية التي تؤلف وتجعل من أمرهما نفعا للخلق وزادا للحياة .

فكيف تنكر أن يضع الخالق للإنسان هذه النسب من الفرائض التي ينتج عنها استقامة الحياة ومنفعة الأحياء وخالق الماء هو رب الدين كلاهما فيض من الرحمن الرحيم : ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [سورة طه : ٥٠] .

كيف بنا ووقائع العلم تكشف لنا عن قيام الحكمة في كل ما صنع الله ؟

---

(١) رواه البخاري .

كيف بنا لا نتقبل ما وضع من غذاء متكامل لإنسانية الإنسان مع أن حياتنا كلها مدينة لحكمته مرتبطة بتقديره .

وهل يمكننا أن ندعي أن في إمكاننا أن نغير في فطرة الحياة لنجعلها على نسق آخر ، ونحن لا نخلق ذبابا أو نرد ما سلب ؟

إذا كان في إمكاننا أن نضع مذهبًا يتلاءم مع فطرة الحياة وسعادة الأحياء أو نغير في أوامر الله فنتقبل منها ما نتقبل ونرد ما نرد ، نقيم فرضا ونبطل فرائض فلنغير في نسب الهواء والماء ونرى نتائج الانتفاع بهما ؟

إن كل شيء وضع بحكمة فلماذا نتقبل الحكمة في أمور المادة ولا نتقبلها في شئون النفس والأخلاق ؟

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة هود : ١ - ٤] .

ولقد قلت : إن الأخلاق الإسلامية من العمق والشمول والإحاطة وهي - تنبع من الإيمان بالله - بحيث تتسع لبر الإنسانية جميعا .

فأنت ترى الصدق صدقًا مع القريب والبعيد : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ١١٩] .

والأمانة شاملة لشئون الخلق جميعًا : ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٣] .

ألا إن دينا تسمع من آياته : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٦] ، لهو جدير أن يكون رحمة الله للعالمين .

وكل مذهب دونه مهما كانت قيمته عاجز عن الوفاء بسعادة الفرد فضلا عن

سعادة الخلق أجمعين ، عاجز عن أن يسوس طباع الفرد أو يهذب غرائزه .

ولم أر شيئًا أحاط بجوانب النفس ودخل إلى مكنونها وأمدها بفيض من الطهر مثل ما فعل الإسلام : لم يقدم للناس منهجًا نظريًّا جافا تعدم معه استجابة القلب والوجدان ، وإنما قدم زخرا فطريا منطلقًا . يتفاعل مع النفس كما يتفاعل مد الشمس مع حياة الزرع والثمر والكائن الحي في فطرة سمحة وطبيعة لينة هادية .

وترى من أثر هذا التفاعل نماء ونضجًا وثمرًا .

والدين في حياة الناس كالشمس في طبيعة الحياة يمكن التنكر له بالقول ولا يمكن نكرانه بالفطرة .

وإذا خفي على الناس ضوء الشمس وهي ساطعة فلعلة في النفس لا في حقيقة الشمس .

وما ضر الشمس أن ينظرها عليل .

وما توقفت عن عملها في الكون أو انحرفت عن مدارها في الأفق ولكن الناس يحجبون عنها إذا لفّهم ظلام الليل أو غشيتهم ظلمة القبور !

وهي ممسكة بكوكبهم ، في قانون جاذبيتها بقاء وفي قيامها في الكون حياة ونور .

وبعد فإن لنا في رسول الله أسوة حسنة وفي الكتاب الذي جاء هداية وموعظة : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ ﴾

[سورة آل عمران : ٣١ ، ٣٢] .

« كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه » .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤] .

إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » [1] .

* * *

(١) حديث شريف .